http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

{ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ . . . } [الأحزاب : 37] فإن أردت أن تعرف ما أخفاه رسول الله فخذه مما أبداه الله والذي أبداه الله قوله تعالى : { لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ . . . } [الأحزاب : 37] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً؟ ولوتتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكي لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه في بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذي ناله بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله في كل مرة يشتكي فيها زيدٌ من زينب يقول له { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتق الله . . . } [الأحزاب : 37] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهي تُوصي ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أيْ بُنية ، إنك لو تُرِكْتِ بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغني أبويها وشَدَّة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلِقْن ، ولهُنّ خُلِق الرجال ، وأن النصيحة لو تركتْ لفضل أدبٍ لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغني بحال عن الزوجة والمرأة كذلك؛ لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها » .

لماذا؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عِزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلا مراحل ، وردتْ في قوله تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . } [الروم : 21] .

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاق الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات للحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة؟

فإذا ما فُقِدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكِبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق . أمر آخر ، إنْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فكَّر في أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف ، وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهي الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَنِ الذي منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه – هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب – لكن الناس لم يُحسِنُوا الظن .

والذي يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صِرْفاً ما نجده من الرياضية الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعني : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى في حق رسوله { وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ . . . } [الأحزاب : 37] يأخذونها سُبَّة في حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شيء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية في { وَتَخْشَى الناس . . . } [الأحزاب

: 37] خشية استحياء ، ويكفي أن الحق سبحانه قال في حق رسوله صلى الله عليه وسلم : { إِنَّ ذلكم كَانَ يُؤْذِي النبي فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ والله لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحق . . . } [الأحزاب : 53] .

فالخشية هنا تعني خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التي ستخوض في حقه ، والتي ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغي مسألة التبني ، فليس لهم حجة ، وطبيعي أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية ، وكان هو صلى الله عليه وسلم أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير؛ لأنه جاء على يديه وفي شخصه صلى الله عليه وسلم .

وسيدنا رسول الله حين يستحي من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبريء عِرْضه وساحته ، مما يشين ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك

« لما رآه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه صلى الله عليه وسلم خشيةَ أنْ يتسببوا له في حرج ، فناداهما رسول الله : » على رِسْلكما إنها صفية « فقالوا : نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال : » إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم « » .

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أيَّ شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حيائه صلى الله عليه وسلم من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فلما دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ لأنه نال كثيراً من رسول الله ، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله – يعني : يطلب له الأمان – فما ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله ، لكن عثمان أعادها مراراً على رسول الله حتى أنه استحي من عثمان فأمّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله؟ » يعني : قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله – انظر إلى العظمة « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم ، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي ،

فناداني بها فتقدَّمت إليه ، فضربني على قفاي ضربة انحلَّتْ معها القضية التي كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له : كيف تستأمن لرجل قال في رسول الله كذا وكذا؟ فقال لي : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم – ولم يقل : « أنا رأيت رسول الله – ما الذي جعلك تقبل شفاعة عثمان؟ فقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟

فالنبي صلى الله عليه وسلم بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تعالى : { وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً } [الأحزاب : 36] وهنا ثلاثة توكيدات : قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضي ، ثم المفعول المطَلق ضلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّي إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه ، ثم يأتي مَنْ يفتح عليه ويدلُّه ، أما هذا الذي يعصي الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهديه أبداً؛ لأن هذا الطريق الذي يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة ، وليس هناك شيء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عثمان وعباد بن بشر أوضحتْ صفة الحياء في رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التي جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة في أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك في مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لي : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكوني لرسول الله؛ لأنك وقعت في قلبه ، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياح ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتني أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام في غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلي الدم في عروقه ، وفعل ما أفعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التي تحلَّي بها زيد .

يقول تعالى في هذه المسألة : { وَإِذْ تَقُولُ للذي أَنعَمَ الله عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ . . . } .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37)

معنى { وَإِذْ تَقُولُ . . . } [الأحزاب : 37] واذكر جيداً وأدِرْ مسألة زيد في رأسك ، اذكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإيمان – والمراد زيد وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هي ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتق الله . . . . } [الأحزاب : 37] .

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهي عادة التبني ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك { والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ . . . } [الأحزاب : 37] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه في موضع آخر : { الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله . . . } [الأحزاب : 39] .

وسبق أن أوضحنا أن خشيته صلى الله عليه وسلم لم تكن خشية خوف من شيء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى : { فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . . } [الأحزاب : 37] الوطر : هو الأشياء التي تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يَكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد في زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا – إذن – يستمر في الارتباط بها؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكي له ما يلاقي من زينب ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له :

{ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتق الله . . . . } [الأحزاب : 37] .

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضي الله عنهما : لما طلّق زيدٌ زينب تركها رسول الله لتقضي عدَّتها ، فلما قضتْ العِدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها عليَّ ، فما هذه العظمة؟ رسول الله يبعث المطلق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته في زيد ، وأنه قد قضي وطره من زينب ، ولم يَعُدْ فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشري يا زينب ، لقد بعثني رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى

رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليها بلا استئذان .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان؟ قالوا لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه { فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا .

. . } [الأحزاب : 37] أي : زوَّجه الله بها من فوق سبع سماوات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم – وهذه أيضاً من الرياضيات الإيمانية – تقول لهن : إني لأفتخر عليكن جميعاً بأنك زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجني ربي ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدِلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدِلُّ عليك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى؟ فتقول : أما الأولى فجدِّي وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجني من فوق سبع سماوات ، وأما الثالثة فلأن سفيري في الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل .

فأيُّ عظمة هذه التي نلاحظها في هذه القصة ، وأيُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض في هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة في حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أي : بنفسه وبرغبته ، إنما زُوِّج أي زوَّجه غيره ، وكلمة { زَوَّجْنَاكَهَا . . . } [الأحزاب : 37] تحتوي على الفعل زوَّج والضمير (ن) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهي مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهي مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله في هذه المسألة ، وفي كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند رب محمد ، واقرأوا إن شئتم : { عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً } [التحريم : 5] .

ثم هَبُوا – جدلاً – أن محمداً فعلها ، ما العيب فهيا وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشيء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً في الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسِك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على

أربع .

شيء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتت إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله – نعم تزوج تسعاً – لكن خاطبه ربه بقوله : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 52] فمَن الذي ضيّق عليه إذن؟ محمد أم أمته؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود ، هل استثني الله نبيه في العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه في معدود بذاته ، استثناه في المعدود لا في العدد ، لأنه لو استثناه في العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته ، بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له صلى الله عليه وسلم أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسلو الله هكذا؟ لا ، إنما كان في بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأَمِن الله رسولَه قال له : افعل ما تشاء ، لأنك مأمون على أمتك .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار في هذه المسألة ، ولم تكن مُسْبقة ، ألم يُؤدِّ فِعْلُه هذا إلى إلغاء عادة التبني؟ ثم أُنْزِعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله في هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف – عليه السلام – لما قال الله فيه : { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا . . . } [يوسف : 24] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أي : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا في حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها؟ إذن : همُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه في هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتي العلة في هذه المسألة { لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً . . . } [الأحزاب : 37] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك في رسول الله : { وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً } [الأحزاب : 37] أي : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأيّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية في إلغاء عادة التبني ، إذن ، فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38)

قوله تعالى : { مَّا كَانَ عَلَى النبي مِنْ حَرَجٍ . . . } [الأحزاب : 38] أي : إثم أو ملامة { فِيمَا فَرَضَ الله لَهُ . . . } [الأحزاب : 38] أي : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل { فَرَضَ الله لَهُ . . . } [الأحزاب : 38] أي : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه؟ ما دام أن الله هو الذي فرض هذا ، فلتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْت إنما قال : أُسْرِي بي . فالذي أسري به ربه – عز وجل – إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً – ولله المثل الأعلى – قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدي الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعي يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؛ لأن غباء المكذِّب يؤدي به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ في الرؤيا أني أتيتُ بيت المقدس ما قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتي بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتي اليوم لنقول : إن الإسراء كنا مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد؟

وقوله تعالى : { سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ . . . } [الأحزاب : 38] أي : إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدَعاً في هذه المسألة .

{ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً } [الأحزاب : 38] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : { وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً } [الأحزاب : 37] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً في هذا الوقت الذي حدثتْ فيه هذه الأحداث؛ لذلك قال هنا { وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً } [الأحزاب : 38] أي : أن ما حدث لرسول الله كان مقدراً أزلاً ، ولا شيء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتِب ، وعلى ما قُدِر .

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39)

وكأن الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى في نبيه محمد : { وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ . . . } [الأحزاب : 37] فالرسل لا يخشوْنَ شيئاً في البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون خشيته في البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافة أنْ تلوكه

ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن { الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله . . . } [الأحزاب : 39] هذه العبارة مبتدأ لم يُخبر عنه؛ لأن قوله تعالى { وكفى بالله حَسِيباً } [الأحزاب : 39] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله . . لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشنوا الناس من أجل البلاغ .

{ وكفى بالله حَسِيباً } [الأحزاب : 39] أي : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتي الله بنبي آخر ، ولم يحدث شيء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر في قضية التبني ، فيقول سبحانه : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . . } .

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)

قال سبحانه { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . . } [الأحزاب : 40] لأن علاج قضية التبني أهمُّ من أُبوته صلى الله عليه وسلم لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشيء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذي يسعده في دينه ودنياه . إذن : ففرحكم برسول الله كرسول أَوْلَى من فرحكم به كأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء في الحياة لا قيمة لهم .

وقوله { مَّا كَانَ . . . } [الأحزاب : 40] النفي هنا يفيد الجحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمدا أَباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآني في كلمة { مِّن رِّجَالِكُمْ . . . } [الأحزاب : 40] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا؟ قالوا : لأنه صلى الله عليه وسلم كان أباً لعبد الله وللقاسم ولإبراهيم ، وكانوا جميعاً منهم ، وهو صلى الله عليه وسلم أبوهم ، فجاءت كلمة { رِّجَالِكُمْ . . . } [الأحزاب : 40] لتُخرج هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم لم يبلُغوا مبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله { ولكن . . . } [الأحزاب : 40] أي : أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله { ولكن رَّسُولَ الله . . . } [الأحزاب : 40] ليس هذا فحسب ، ولكن أيضاً { وَخَاتَمَ النبيين . . . } [الأحزاب : 40] أي : الرسول والنبي الذي يختم الرسالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسائل التي وقف عندها المستشرقون معترضين ، يقولون : جاء في القرآن : { وَإِذْ

أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ . . . } [آل عمران : 81] .

ومحمد صلى الله عليه وسلم من ضمن الأنبياء الذين أُخذَ عليهم هذا العهد ، بدليل : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ . . . } [الأحزاب : 7] .

إذن : أخذ الله العهد على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومهم بمقدم رسول جديد ، وأنه إذا جاءهم عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ ينصرونه ، كما بشَّر مثلاً عيسى عليه السلام برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : { وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ . . . } [الصف : 6] .

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمِروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتي ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم أن يَبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة في زمن المأمون ، فأمر به فَوُضِع في السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعي النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعي الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعي أنه نبي ، فماذا تقول فيه؟ قال : هو كذاب؛ لأنني لم أرسل أحداً – فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجدر أنه نبي .

والمرأة التي ادَّعَتْ النبوة أيضاً في زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قالها لها : ألم تعلمي أن رسول الله قال : لا نبيَّ بعدي؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدي!

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : { وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحزاب : 40] وما دام أن الله تعالى عليهم بكل شيء فليس لأحد أنْ يعترض؛ لأنه سبحانه هو الذي يضع الرسول المناسب في المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

ثم يقول الحق سبحانه : { يأيها الذين . . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذِكْراً كثيراً؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال { وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . . } [العنكبوت : 45] .

والذكر شغل الذاكرة ، وهي منطقة في المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان في بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها في الحافظة ، أو في حاشية الشعور ، فأنت مثلاً

ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أَرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان في المكان الفلاني .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً في بؤرة الشعور ، الذكر يعني قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها في الحاشية أو في منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً في منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغي أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التي ينبغي أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت في عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسِّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون في ذلك ذكاء وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها في قوله تعالى : { مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . } [الأحزاب : 4] .

فالإنسان الذكي هو الذي لا يشغل باله بأمرين في وقت واحد ، ولا يفكر في شيء وهو بصدد شيء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية في التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفّق هو الذي يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم في الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسألَ فلا ينشغل ، لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هي أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهي تجعل المدرس في وادٍ والتلاميذ في واد آخر ، كل منهم يفكر في شيء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الطالب حين يعلم بأهمية درس من الدروس فيذاكره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجيب عنه بنصه ، لماذا؟ لأنه ذاكره في الوقت الحرج والفرصة ضيقة لا تحتمل انشغالاً ولا تهاوناً ، فيلتقط العقل كل كلمة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هي ، لماذا؟ لأنها صادفتْ العقل خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخالق سبحانه في مسألة التذكُّر ، فالذاكرة جزء صغير في المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذي لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كاملاً ويُعيده عليك في أيِّ وقت ، ونحن نتعجب من شريط التسجيل الذي يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقرآن ليس حفظاً فحسب ، إنما معايشة ، فحروف القرآن ملائكة ، لكل حرف منه ملك ، والمَلَك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقرآن تكثر من تلاوته ، فكأنك تود الملائكة ، فساعة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك . فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّت من ذاكرتك؛ لذلك حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصياً من الإبل في عقلها » .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تكلفك شيئاً ، ولا تُعطل جارحة من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين – هذا بالنسبة لوضعك – ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين – هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حْولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثلاثين مرة في اليوم كُتِبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذِكْر الله مسألة سهلة تستطيع أنْ تذكر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب . . إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هَيِّن .

وقوله تعالى : { وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الأحزاب : 42] التسبيح : هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أيِّ شيء نُنزه الله؟ قالوا : ننزه الله في ذاته ، وفي أفعاله ، وفي صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجود ، وللنهر وللجبل وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجود ما سواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أما وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا في الذات .

أما في الأفعال ، فالله تعالى له فِعْل كما أن لك فعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فعله كفعلك ، وهذا ما قلناه في حادثة الإسراء والمعراج ، وفي الفرق بين سَرَى وأسرى به ، فإذا كان الفعل لله تعالى فلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فعلْ الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى في طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قوة فاعله ، فالولد الصغير ينقل في ساعة ما ينقله الكبير في دقيقة ، فلو قِسْتَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدت الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله في صفاته ، فالله تعالى له سمع نُزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزِّه أنْ يكون كوجهك . . إلخ كل هذا في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] .

وحين تستعرض آيات التسبيح في القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء في استهلالات السور ، ففي أول الإسراء : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] .

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة؛ لذلك قال بداية { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد من خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا في الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال :

والمتتبع لألفاظ التسبيح في القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين في قوله { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . } [الإسراء : 1] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض . . . } [الحشر : 1] .

وما يزال الخلق يُسبِّح في الحاضر : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض . . . } [الجمعة : 1] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] .

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك في رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا نِدٌّ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحَتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا في ذلك قول أهل الريف (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليه ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه أحمد الله لأنه مُنزَّه ، أحمد الله أنه لا شريك له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، أحمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، أحمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نسبّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذي خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم – والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية – بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع في نعمه ، منذ ميلادك إلى سِنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سنَّ الرشد فتُقبل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوي قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، ولما انتفع بها أحد بعدنا ، ومثَّلْنا لذلك ببذرة البطيخ إن وجدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت وحَلَتْ وصارتْ صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه لحفظ النوع .

شيء آخر : بعد أن بلغتْ سنَّ التكليف ، أجاءك التكليف مستوعباً لكل حركة في حياتك؟ أجاء قَيْداً لك؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها في نطاق محدود أمرك الله فيه بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة في المائة من حركة حياتك ، وترك لك نسبة الخمسة والتسعين أنت حُرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأيُّ عظمة هذه! وأيُّ رحمة التي يعاملنا بها ربنا عز وجل! وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على حبِّ الخالق سبحانه لخَلْقه وصنعته . أفلا يستوجب ذلك منَّا ألاَّ نغفل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، في كل غدوة وعشية .

والأعظم من هذا كله أنه – سبحانه وتعالى – جعل ذِكْرك له وتسبيحك إياه لصالحك أنت ، وفي ميزانك؛ لذلك قال في الآية التي بعدها : { هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ . . . } .

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43)

معنى { هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ . . . } [الأحزاب : 43] الصلاة هي الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعي ، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف نفهم هذا المعنى؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك وتعالى؟ قالوا : إذا كانت نهاية الصلاة طلبَ الخير ، وهذا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعي ، وهو الذي يملك مفاتح الخير كله ، فهو الذي يُصلِّي عليكم ، وهو الذي يعطيكم ، وهو الذي يرحمكم .

وأيضاً يُصلِّي عليكم الملائكة { وَمَلاَئِكَتُهُ . . . } [الأحزاب : 43] وقد أخبرنا سبحانه عنهم أنهم { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء : 27] .

وقال : { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

والملائكة أقسام : منهم المكلفون بخدمتنا ومنافعنا في الأرض ، ومنهم مَنْ يحفظنا من الأحداث التي قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتبون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام في قوله تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29] .

وهذا دليل على أنهم سيكونون في خدمته .

وكأن الله تعالى قال لإبليس : طلبتُ منك أنْ تسجد لآدم ، وطلبت من الملائكة وأنت معهم ، فإنْ كنتَ من الملائكة فينبغي أن تستجيب ، وإنْ لم تكُنْ من الملائكة وحشرتك بطاعتك في زمرتهم كان يجب عليك أنْ تطيع لأن الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثَل ، ولله تعالى المثل الأعلى قُلْنا : إذا أعلن في أحد الدواوين الحكومية أن الرئيس سيزور هذ الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أنْ يصطفُّوا لتحيته ، ألم يشمل هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أَوْلى؟

فإذا قال الله للملائكة : اسجدوا لآدم وكان معهم إبليس وهو أقلّ منهم ، فكان عليه أنْ يسجد . ثم إنْ كنتَ يا إبليسُ أخذتَ منزلة أعلى من الملائكة بالطاعة ، فلا بُدَّ أنْ تكون طاعتك لله على هذه المنزلة ، فأنت مَلُوم على أيّ حال ، إلا أنه كان من الجن ، والجن مختار ، ففسق عن أمر ربه .

وهناك نوع آخر من الملائكة لا دخلَ لهم بالإنسان ولا بدنياه ، وهم الملائكة العالون أو المهيَّمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى إبليس أنْ يسجد قال له ربه : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75] .

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود؛ لأنهم لا يدرون شيئاً عن آدم ، وليس لهم علاقة به ، وأخصُّهم حَمَلة العرش وهم أكرم الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصلُّون عليكم بعد أنْ صلَّى الله عليكم؛ لذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه هؤلاء الملائكة ودورهم في الصلاة علينا والاستغفار لنا ، فيقول سبحانه : { الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ . . . } [غافر : 7] .

فهؤلاء هم أخصُّ الملائكة وأكرمهم يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، لكن ما فائدة (يؤمنون به) بعد أن سبَّحوه؟ قالوا : لأن التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، أما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن حبٍّ وعن إيمان ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أنْ يُسبَّح ، ومن مهام هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإنْ لم تكن لهم علاقة بالناس وليسوا في خدمتهم ، إلا أنهم يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم .

إذن : نقول الصلاة من مالك الدعوة القادر على الإجابة رحمة وعطف وحنان ، والصلاة ممَّنْ دونه دعاء للقادر المالك للخير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ويستغفرون الله لهم ، بل ويبالغون في الدعاء ويتعطَّفون فيه : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم } [غافر : 7] .

بل لم يقفوا عند حَدِّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة { رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ

جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } [غافر : 8] .

ثم يزيدون على ذلك : { وَقِهِمُ السيئات وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم } [غافر : 9] .

ووالله ، لو أراد المؤمن أنْ يدعو لنفسه ما وجد أعمَّ ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أنْ طلبوا له المغفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا في أهل الأعراف ، لا هُمْ في الجنة ، ولا هُمْ في النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . } [آل عمران : 185] .

وهذه المسألة من المسائل التي وقف أمامها المستشرقون ، فقالوا : إنها تتناقض مع الحديث النبوي : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادي ملكان يقول أحدهما : اللهم أَعْطِ مُنفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعْطِ مُمسكاً تَلَفاً » ، فكيف تقولون : إن الملائكة يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بالشر؟

وهم معذورون في اعتراضهم؛ لأن ملكاتهم لا تستطيع فَهْم المعاني في الحديث الشريف ، والتناقض في نظرهم في قوله صلى الله عليه وسلم : « ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ، فالأولى واضحة لا تناقض فيها؛ لأنها دعوة بالخير ، أما الثانية فهي دعوة بالشر . « اللهم أعْطِ ممسكاً تلفاً » .

ولو تأملوا نصَّ هذه العبارة لوجدوا فيها الجواب ، فالتلف يُعطي أم يؤخذ؟ المفروض أنه يُؤخذ ، فحين يقول رسول الله : « اللهم أعط ممسكاً تلفاً » فاعلم أنه عطاء لا أَخْذٌ وإن كان في ظاهره تلفاً ، والمعنى أن شيئاً شغلك ، وفتنك فتصيبك فيه مصيبة تخلصك منه فتعود إلى ربك ، إذن : هو أَخْذ في الظاهر عطاء في الحقيقة .

ثم يبيّن لنا الحق سبحانه العلَّة في صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين ، فيقول { لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور . . . } [الأحزاب : 43] فكأن منهج الله بافعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا؛ لأنه الوسيلة التي تُخرجنا من الظلمات إلى النور ، وجاء هنا بالشيء الحسِّيّ لنقيس عليه المعنوي ، فأنت في النور ترى طريقك وتهتدي إلى غايتك بلا معاطب ، أمَّا في الظلام فتتخبط خُطَاك وتضلّ الطريق في الظلام ، تسير على غير هُدى ، وعلى غير بصيرة ، فتحطم الأضعف منك ، ويُحطِّمك الأقوى منك .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُوجِّهنا حين ننام بالليل أنْ نطفيء المصابيح فيقول : « واطفئوا المصابيح إذا رقدتم » وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يرتاح في الضوء الراحة التامة لما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء ، كما

حذرونا أيضاً من التعرُّض لأضواء التليفزيون مثلاً .

إذن : للنور مهمة ، وللظلمة مهمة – هذا في الحسّيات .

كذلك منهج الله بافعل ولا تفعل هو النور المعنوي الذي يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التي تهتدي بها في دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها : { وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً } [الأحزاب : 43] .

لكن إنْ كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين؟ قالوا : هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فالله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة؛ لأن رحمن الدنيا يعني أن خيره يعُمُّ الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، أما في الآخرة فتتجلَّى صفة الرحيم؛ لأن رحمته في الآخرة تخصُّ المؤمنين دون غيرهم .

والحق سبحانه حين يقول : { الله نُورُ السموات والأرض . . . } [النور : 35] لا يعني هذا وَصْفاً لذاته سبحانه ، إنما يعني أنه سبحانه نور السماوات والأرض أي : مُنوِّرهما كما نقول : المصباح نور المسجد .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بقول أبي تمام في مدح المعتصم :

إقْدَامُ عَمروٍ في سَمَاحةِ حاتم ... في حِلْم أحنْفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

وعمرو مضرب المثل عند العرب في الشجاعة ، وحاتم في الكرم ، وأحنف بن قيس في الحِلْم ، وإياس بن معاوية في الذكاء ، فقام إليه أحد الحاضرين وقال له – وكان حاقداً عليه – : أمير المؤمنين فوق ما تقول ، أتُشبِّهه بأجلاف العرب؟ وأنشأ يقول :

وشبَّهه المدَّاح في البَأسِ والنَّدَى ... بمَنْ لوْ رآهُ كَانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِي جَيْشهِ خَمْسونَ أَلْفاً كعنتْر ... وفي خُزَّانِهِ أَلْفُ حَاتِمِ

عندها أطرق أبو تمام هُنيهة ، ثم قال :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِي له مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَربَ الأقلّ لِنُورِهِ ... مثَلاً من المشْكاةِ والنِّبراس

إذن : فالنور المعنوي يُجنّبك العطب المعنوي ، كما أن النور الحسيَّ يُجنِّبك العطب الحسِّيَّ؛ لذلك قال سبحانه عن نوره { نُّورٌ على نُورٍ . . . } [النور : 35] يعني : نور حِسّيّ يقيكم المعاطب الحسية ، ونور معنوي يقيكم المعاطب المعنوية { يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ . . . } [النور : 35] والمراد به هنا النور المعنوي الذي يهتدي به المؤمن ويسير عليه ، أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسيَّ فقط .

فإنْ سألت : فأين نجد هذا النور يا رب؟ يُجيبك ربك : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله . . . } [النور : 36-37] .

فإنْ أردتَ النور الحق فهو في خَلْوتك مع ربك وفي بيته ، حيث تتجلَّى عليك إشراقاته ويغمرك نوره .

وقبل أن نترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين نذكر صلاتنا نحن على النبي صلى الله عليه وسلم ، عملاً بقوله تعالى : { إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي ياأيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب : 56] .
فالصلاة من الله تعالى تعني الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة من الملائكة تعني الدعاء والطلب من الذي يملك ، أما الصلاة منا نحن على سيدنا رسول الله ، فلبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهي ليست كذلك؛ لأنك تقول في الصلاة على رسول الله : اللهم صَلِّ على محمد ، فأنت لا تصلي عليه صلى الله عليه وسلم ، إنما تطلب من الله تعالى أنْ يصلي عليه ، لكن كيف تطلب من الله أن يصلي على رسوله؟ قالوا : لأن كل خير ينال الرسول منثور على أمته .
والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلي عليه كل مَنْ آمن به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلها ، فقال سبحانه : { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ . . . } [التوبة : 103] وكأنها رَدٌّ للتحية ولصلاة المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم يقول الحق سبحانه : { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ . . . } .

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44)

الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ، ولكن من الله ، كما قال في موضع آخر { سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 58] .
فالرحمة التي ننالها ، والعطف والحنان من الله لنا في الدنيا يعني : سداداً في حركة الحياة ، واستقامة في السلوك ، وراحةَ للبال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من مُنغِّصات وأحداث تُصيبك ، أما رحمة الله في الآخرة فهي سلام تام لا يُنغِّصه شيء ، والإنسان أيضاً يتمتع بنعم الله في الدنيا ، لكن يُنغِّصها عليه خشية فواتها .
أما في الآخرة فيتمتع متعة خالصة ، لا ينغصها شيء ، فالنعمة دائمة باقية لا يفوتها ولا تفوته ، لقد كان في الدنيا في عالم الأسباب وهو الآن في الآخرة مع المسبِّب سبحانه الذي يقول : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .
لكن ، ما المراد بقوله تعالى : { يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ . . . } [الأحزاب : 44] أيوم القيامة للثواب ، أَمْ يوم يلقوْنَهُ بالموت وبانتهاء الحياة ، كما نقول مثلاً في الموت : فلان لقي ربه؟ قالوا : المؤمن لا يأتيه مَلَك الموت إلا إذا سلَّم عليه أولاً قبل أن يقبض روحه ، فإذا سلم عليه فهذا يعني أنه من أهل السلام ، وهذه أول مراتبه . وقد يكون المراد السلام التام الذي يَلْقاه المؤمن يوم القيامة

حيث يجد سلاماً لا مُنغِّصات بعده .

لذلك نجد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاني سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأتْ ما يعانيه : واكرباه يا أبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أبيك بعد اليوم » فأيُّ كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى جوار ربه ، إلى السلام النهائي الذي لا خوفَ بعده .

ثم يقول سبحانه : { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } [الأحزاب : 44] فوصف الأجر نفسه بأنه كريم ، والذي يُوصَف بالكرم الذي أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعني أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذي أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً .

ومثال ذلك قوله تعالى : { وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً } [الأحزاب : 31] فتعدَّى الكرم من الرازق إلى الرزق؛ لأن الرزق في الدنيا له أسباب بأيدي الخَلْق ، لكن الرزق في الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شيء ، ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سَعْي منك ، وبمجرد الخاطر تستدعيه فتراه بين يديك .

ثم يقول الحق سبحانه : { يأيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ . . . } .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46)

الشاهد : هو الذي يؤيد ويُثبِّت الحق لصاحبه؛ لذلك يطلب القاضي شهادة الشهود ليأتي حكمه في القضية عن تحقيق وبيِّنة ودليل؛ لذلك يقولون إن القاضي لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إنْ علم شيئاً في حياته العامة ، ثم جاء أمامه في القضاء يتركه ويتنحَّى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبني حكمه على علمه هو .

وحين نتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أنْ يُوزِّع مسئولية الحكم على عدة جهات ، حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق .

فنرى مثلاً إذا حدثتْ حادثة نذهب إلى القسم لعمل (محضر) بالحادث ، (المحضر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله النيابة للقاضي ليحكم فيه ، ثم يُعَاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية ليُنفَّذ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحري الحق ووضعه في نصابه .

فما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذي يشهد ، وهو الذي يحكم ، وهو الذي يُنفِّذ الحكم؟ لا شكَّ أن العدالة هنا ستكون عدالة مطلقة . فإنْ قلتَ : إذن عَلاَم يشهد رسول الله؟

قالوا : يشهد رسول الله أنه بلَّغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً أنهم بلَّغوا أممهم كما قال سبحانه : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً } [النساء : 41] .

إذن : كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك قد بلَّغتها ، لكن ميْزتُك على مَنْ سبقك من إخوانك الرسل أن تكون خاتمهم ، فلا نبيَّ بعدك؛ ولذلك سأجعل من أمتك من يخلف الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل في مهمتهم .

لذلك جاء في الحديث الشريف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

إذن : ضمن الحق سبحانه في أمة محمد أنْ يوجد فيه مَنْ يقوم بمهمة الأنبياء في البلاغ ، وهذا معنى { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس . . . } [البقرة : 143] .

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإنْ قلتَ كيف؟ نقول : يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلَّغَتْ أممها ، هذا بالنسبة لمن مضى منهم ، أما مَنْ سيأتي فأنتم مطالبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلَّغتموهم ، كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلَّغكم .

إذن : فأمة محمد أخذت حظاً من النبوة ، وهو أنها ستُسْتدعي وتشهد على الناس .

لذلك يُعِدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته لهذه المهمة ، فيقول : « نضَّر اللهُ امرءاً ، سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع » .

واقرأ أيضاً في ذلك قول الله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً . . . } [البقرة : 143] لماذا؟ { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . } [البقرة : 143] فهذه الأمة في الوسط ، بحيث لا إفراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذي لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يُوضعَ فيها ، فهي كالميزان العادل الذي لا يميل هنا أو هناك .

وقوله سبحانه { وَمُبَشِّراً . . . } [الأحزاب : 45] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هي الإخبار بالخير قبل أوانه { وَنَذِيراً . . . } [الأحزاب : 45] أي : منذراً لمن لم يُصدقك بعقاب الله ، والإنذار هو التخويف بشرٍّ لم يأْت أوانه { وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ . . . } [الأحزاب : 46] أي : بأمر منه ، لا تطَوُّعاً من عندك ، فقد يأتي زعيم من الزعماء أو مصلح من المصلحين بمنهج أو بأفكار من عنده ويبثُّها في مجتمعه .

فقوله تعالى : { بِإِذْنِهِ . . . } [الأحزاب : 46] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر ، فهذا الذي جاء به محمد من عند الله ، وما بلَّغكم به إلا بأمر الله .

ويُشترط فيمَنْ يدعو إلى منهج الخير ثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ ينتفع بشيء مما يدعو إليه ، وهذا لا يوجد في بشر أبداً ، وقد رأينا : حينما قنَّنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قنَّنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسمالين . . وهكذا .

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلٌّ يريد أنْ يُقنِّن على هواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أنْ يُسخِّر غيره لخدمة هواه ، وبعد فترة قد تطول تفضحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع ، وتُظهِر لهم أنفسهم مساويء ما قنَّنُوا حتى يثوروا هم على قوانينهم ، وينتفضوا على أنفسهم ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين .

الشرط الثاني : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أنْ يُقنِّن ، وألاَّ تغيب عنه جزئية من جزئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه .

ثالثاً : يُشترط فيمَنْ يُقنِّن أن يكون حكيماً فيما يُقنِّن ، بحيث يضع الأمر في موضعه ، فلا ينصف جماعة على حساب أخرى ، وأن يكون الجميع أمامه سواء .

وحين تتأمل هذه الشروط الثلاثة تجدها لا تتوفر إلا في الحق سبحانه وتعالى ، إذن : ينبغي ألاَّ يُقنِّن للبشر إلا ربُّ البشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من المحسوسات ، فالناس في الظلمة يحتاجون لبعض النور؛ ليهتدوا به إلى قضاء مصالحهم في الليل ، فينير كلٌّ منا ليله بما يناسبه من وسائل الإضاءة ، فواحد يشعل شمعة ، وآخر لمبة (نمرة خمسة) وآخر لمبة (نمرة عشرة) ، وبعد ما استخدمنا الكهرباء رأينا اللمبة العادية والفوروسنت والنيون والكرستال . . . إلخ .

إذن : أنتم تنيرون ظلمتكم على قدر إمكاناتكم ، فإذا ما أشرقتْ شمس الصباح ، أَتُبْقون على هذه الأنوار؟ لا بل يطفيء الجميع أنواره؛ لأن نور الشمس يأتي على قدر إمكانات خالقها عز وجل ، لذلك نقول : أطفئوا مصابيحكم ، فقد طلعت شمس الله ، فإذا كان ذلك في النور الحسيِّ فهو أيضاً ومن باب أَوْلَى في النور المعنوي ، فإذا جاءك نور التشريع ونور المنهج من الله ، فأطفيء ما عداه من تشريعات ومناهج .

وقوله تعالى : { وَسِرَاجاً مُّنِيراً } [الأحزاب : 46] شبّه الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالسراج ، ولا تستقلّ هذا الوصف في حقِّ رسول الله ، فليس معنى السراج أنه كالسراج الذي يضيء لك الحجرة مثلاً ، إنما هو كالسراج الذي قال له عنه :

{ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً } [النبأ : 13] والمراد : الشمس .

فإذا قُلْتَ : فلماذا لم يُوصفَ النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شمس ، وقد قال تعالى عنها : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً . . . } [يونس : 5] .

والشمس أقوى من السراج؟ قالوا : الكلام هنا كلام ربٍّ والأسلوب دقيق معجز ، صحيح أن الشمس تنير الدنيا كلها ، إنما أمة محمد مُكلَّفة أن تقوم بدعوته من بعده ، فكأن رسول الله سراج ، والسراج تأخذ منه النور دون أنْ ينقص نورُه ، لكن لا تستطيع أنْ تأخذ من الشمس .

وحين سطعتْ أنوار الهداية على لسان رسول الله محمد لم يَعُدْ للشرائع الأولى أنْ تتدخل على حدِّ قول المادح :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَواكِبُ ... إذَا طلعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول الحق سبحانه : { وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ . . . } .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47)

نقول في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل؛ لأن العدل أن تأخذ الجزاء المساوي للعمل ، أو تأخذ حقك ، أمَّا الفضل فأنْ تأخذ فوق حقك وزيادة ، ومن ذلك قوله تعالى : { قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . } [يونس : 58] .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » لأنني حين أحسب عملي مقابل ما أعطاني ربي من نِعَم قبل أنْ أُخلق ، وإلى أن أبلغ وأُكلَّف ، أجد أنني لو قضيتُ حياتي كلها في طاعة ربي ما وفَّيتُ بحقه عليَّ .

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعُها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن : فالثواب عليها يكون فضلاً من الله .

ومثَّلْنا لذلك – ولله المثل الأعلى – بولدك تُشجِّعه على المذاكرة ، وتُحضر له أدواته ، وتنفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح آخر العام أعطيْتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تصلح بين متخاصمين ، أو تُؤلِّف بينهما فقُلْ لهم : أتحبون أنْ أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل؟ سيقولون لك : ليس هناك أفضل من العدل ، وعندها لك أن تقول : بل الفضل أحسن من العدل؛ لأن العدل أنْ تأخذ حقك من خصمك ، والفضل أنْ تترك حقَّك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل .

وهذا ما رأيناه مُطبّقاً في قصة الإفك بين سيدنا أبي بكر حين عفا عن مسطح بعد أن نزل قوله تعالى : { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 22] .

فمن أراد أنْ يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأخيه زلَّته وسَوْأَتَهُ .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين . . . } .

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)

في أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { ياأيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين . . . } [الأحزاب : 1] وهنا خاطبه ربه بقوله : { وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وكفى بالله وَكِيلاً } [الأحزاب : 48] فالأولى كانت في بداية الدعوة ، حين أخذ الكفار يكيدون لرسول الله ، فما بالك وقد قويتْ الدعوة ، واشتدَّ عودها ، لا بُدَّ أنْ يتضاعف كيْد الكافرين لرسول الله .

لذلك يكرر له مسألة { وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين وَدَعْ أَذَاهُمْ . . } [الأحزاب : 48] ولا

يعني ذلك أنني سأُسْلِمك ، إنما أنا وكيلك { وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وكفى بالله وَكِيلاً } [الأحزاب : 48] .

فإنْ قلت : : كيف والوكيل أقل من الأصيل؟ نقول : لا ، فالأصيل ما وكَّل غيره ، إلا لأنه عجز أنْ يفعل ، فاختار الأقوى ليفعل له .

ثم يقول الحق سبحانه : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا . . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49)

تتحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخصُّ حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنساني لا يتأتَّى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخِطْبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخِطْبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخِطبة مجرد أنْ يذهب طالب البنت إلى وليِّها ليقول له : أإذا تقدمتُ لطلب يد ابنتك أكون أهلاً للقبول؟

فيقول وليُّها : مرحباً بك ، هذه تسمى خِطْبة ، وربما لا يتقدم ، فإنْ تقدَّم لها ، له أنْ يراها مرة واحدة بين محارمها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للشاب الذي أراد الخطبة : « انظر إليها ، فإنه أحْرَى أنْ يُؤدَم بينكما » .

وعجيب أنْ يخلط الناس بين الخِطْبة والعقد ، فيعطون الخِطْبة صفة العقد ، فإذا قيل الوليُّ الخاطبَ اتفق معه على المهر أو الشبكة وعلى كلِّ تفاصيل الزواج ، وأباح له أنْ يجلس مع ابنته ، وأنْ يتحدث معها ، وربما يختلي بها ، ويا ليتهم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج .

فالخطبة إنْ عدل عنها الخاطب ما عليهم إلا أنْ يذهب إلى وليِّ البنت فيقول له : لقد طلبتُ منك يد ابنتك وأنا في حِلٍّ من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسخ قبل الدخول إلا بالطلاق ، إذن : لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد .

والحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا في هذه الآية الكريمة ما يتعلَّق بأحكام الطلاق إنْ وقع قبل الدخول بالزوجة : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا . . . } [الأحزاب : 49] .

فالنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر لما قال { مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ . . . } [الأحزاب : 49] والمسُّ كناية عن الجماع ، وهو عملية دائماً يسترها القرآن بألفاظ لا تدل عليه حقيقة .

والحكم هنا { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا . . . } [الأحزاب : 49] فليس للزوج على زوجته عِدَّة إنْ طلَّقها قبل أنْ يدخل بها؛ لأن العِدَّة إنما كانت لحكمة : فالعدة في حالة الطلاق

الرجعي تعطي للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوّه من الحمل ، وقد تكون العِدَّة ، لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه تُوفِّي عنها .

فالعِدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا الفرق يتضح كذلك في مسألة المهر ، فقبل الدخول للزوجة نصف مهرها ، كما قال سبحانه : { فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ . . } [البقرة : 237] وقال هنا : { فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [الأحزاب : 49] فإنْ سُمِّي المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإنْ لم يُسَمَّ فلها نصف مهر المثْل .

أما العِدَّة بعد الدخول ففيها تفصيل ، بحيث تختلف من حالة لأخرى بما يناسب الحالة التي تشرع فيها العِدَّة ، والعِدَّة كما قلنا : تدل على أنها شيء معدود ، فإنْ كانت المرأة من ذوات الحيض ، فهي ثلاث حيضات ، ليتأكد خلالها استبراء الرحم ، لكن الرحم يستبريء من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات؟

قالوا : الهدف من ذلك إعطاء الزوج فرصة ، فقد يراجع نفسه وتهدأ نفسه ، فيراجع زوجته في هذه المدة ، فالشرع هنا يراعي بناء الأسرة ، أَلاَ ترى أن الحق سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة : زوّجني وزوَّجتك ، أما في حالة الطلاق والفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل؛ لأن الله تعالى يريد ألاَّ يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقْضِ كلمة الله في الزواج .

وأذكر أنهم كانوا يسألوننا سؤالاً وكأنه لغز : أو يعتدُّ الرجل؟ أو : أو ليس للمرأة عِدَّةٌ عند الرجل؟ قالوا : نعم ، يعتدُّ الرجل في حالة واحدة وهي : إذا تزوج امرأة ثم طلقها ، وأراد أن يتزوج بأختها ، فعليه أن يمضي العدة ليحلَّ له الزواج بأختها .

أما عِدَّة التي انقطع عنها الحيض فثلاثة أشهر ، وعدة الحامل أنْ تضع حملَها ، أما عدة المتوفَّي عنها زوجها فأربعة أشهر وعشرة أيام ، لكن ما الحكم إذا اجتمع للمرأة الحملُ مع وفاة الزوج ، فكيف تعتدُّ؟ قالوا : تعتدُّ في هذه الحالة بأبعد الأجلين : الحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولك أنْ تسأل : لماذا كانت عِدَّة المطلَّقة ثلاثة أشهر ، وعِدَّة المتوفَّي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام؟ قالوا : لأن هناك فَرْقاً بين الطلاق والوفاة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجته ، سببه أن الذي خلق الذكر والأنثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هي : زوّجني وزوَّجتُك شريطة أنْ تكون علانية على رءوس الأشهاد ، ولا تستهنْ بهذه الكلمة ، فأنت لا تعلم ما الذي تصنعه هذه الكلمة في ذرات التكوين الإنساني ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا : هَبْ أنك تعرضتَ لشاب تعوَّد معاكسة ابنتك مثلاً ، ماذا تصنع أنت؟ لا شكَّ أنك ستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغَيْرة ، وربما تعرضْتَ له بالإيذاء ، أما إنْ جاء من الباب ، وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذي حدث؟ وما الفرق بين الموقفين؟

فالذي أهاجك أنه تلصَّص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

« ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على بناته ، وقد جاء يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زواج إحدى بناته ، فضحك رسول الله وقال : » جدع الحلال انف الغيرة « » .

فالعقد الذي يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سِيَالاً حلالاً عند كل منهما ، ويلتقي هذان السيالان في الحلال وتحت مظلة الشرع الذي جمعهما .

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْه من أحدهما للآخر؛ لذلك تكون العِدَّة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْع الحمل؛ لأن الكراهية التي حدثتْ بينهما تميت خلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتُسرِع بانتهاء ما بينهما من سِيال وتطْعسه .

أما في حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة ما تكون الزوجة مُحبَّة لزوجها ، حزينة على فَقْده ، وتأتي فاجعة الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفي هذه الحالة ليس من السهل أنْ ينتهي السيَّال بينهما؛ لذلك يشاء الخالق سبحانه أنْ يطيل أمد العِدَّة إلى أنْ ينتهي هذا السِّيال الذي جمعهما ، فلا يدخل على سيال الرجل سيال جديد ، فيحدث صراع بين السيالين؛ لذلك كانت عِدَّة المتوفي عنها زوجها أطول من عدة المطلقة .

وقوله تعالى : { ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ . . . } [الأحزاب : 49] يعني : أن الطلاق قبل المسِّ والدخول كان موجوداً كما هو موجود الآن ، ونحن نرى الطرفين أو أحدهما يتعجَّل العقد ، رغم أنه غير مُستعد لنفقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحة تعود عليه من هذا الارتباط .

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون للزوج في هذه الحالة أنْ يختلي بالزوجة ، وإنْ كان عاقداً عليها ، وبعض فيتاتنا لهن قصص مُشرِّفة في هذه المسألة .

ومما رُوى في هذا الصدد قصة بهيثة بنت أوس بن حارثة الطائي والحارث بن عوف ، وهو سيد من سيادات بني مُرَّة ، وكان للحارث ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفي ليلة جلس الحارث يتسامر مع صديقه ابن سنان فقال له : تريني لو أنني خطبتُ إلى أحد من العرب ابنته أيردّني؟ قالها وهو مُعْتَزٌّ بنفسه فخور بسيادته على قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له : نعم هناك مَنْ يردُّك ، قال : مَنْ؟ قال : أوس بن حارثة الطائي ، فنادي الحارث على غلامة وقال : أحضر المراكب ، وهيا بنا إلى أوس بن حارثة الطائي ، فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً في فناء بيته ، فلما رآه أوس قال له : ما الذي جاء بك يا حارث ، فأقبل عليه الحارث ، وقال : ويك يا أوس ، ما الذي جاء بك؟ وتركه على دابته –

قال : جئتُك خاطباً لابنتك ، فقال له : لستَ هنك – يعني لستَ أهْلاً لها – فلوى الحارث زمام دابته منصرفاً ، في حين بدا على ابن سنان الارتياح؛ لأن كلامه صدق في صاحبه .
فلما دخل أوس على امرأته سألتْه : مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل ولم ينزل؟ قال : إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بني مُرَّة ، فقالت : ولماذا لم تستنزله عندك؟ قال : لقد استحمق – يعني : ارتكب حُمْقاً – قالت : وكيف هذا؟ قال : إنه جاء يخطب ابنتي ، قالت : عجباً أو لا تريد أن تُزوِّج بناتك؟ قال : بلى ، قالت : فإذا كنتَ لا تُزوِّجهن من سادات العرب ، فمَنْ تُزوِّجهن؟ يا أوس ، اذهب فتدارك الأمر ، قال : كيف وقد فرطَ مني ما فرط؟ قالت : الحقْ به ، وقُلْ له : إنك جئتني وأنا مُغْضب من أمر لا دخْلَ لك فيه ، ولما راجعتُ نفسي جئتُك معتذراً أطلب منك أنْ تعود ، ولك عندي ما تحب .

فذهب الرجل ، فلم يجد الرَكْبَ ، فشدَّ على راحلته ، حتى صار بينهما في الرَكْب ، فالتفت ابنُ سنان ، وقال : ابن عوف ، هذا أوس يلحق بنا ، فقال : وماذا أصنع به امْضِ ، فناداه أوس : يا حارث : اربع عليَّ ساعة ، يعني : انتظرني – ولك عندي ما تحب ، ففرح يا حارث وعاد معه .
عاد أوس إلى بيته ، وقال لامرأته : ادْعي ابنتك الكبرى ، فجاءت ، فقال : با بُنيَّة إن الحارث بن عوف سيد بني مرة جاء ليخطبك فقالت : لا تفعل يا أبي ، فقال : ولِمْ؟ قالت : إنني امرأة في وجهي ردّة – يعني قُبْح يردُّ مَنْ يراني – وفي خُلُقي عُهْدة – أي عيب – وليس بابن عم لي فيرعى رحمي ، ولا بجَار لك في بلدك فيستحي منك ، وأخاف أنْ يكره مني شيئاً ، فيُطلِّقني فيكون عليَّ فيه ما تعرف . فقال لها : قُومي ، بارك الله فيك .
ثم قال لامرأته : ادْعِي ابنتك الوُسْطى فجاءتْ ، فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا تفعل يا أبي ، قال : ولِمْ؟ قالت : أنا امرأة خرقاء – يعني : لا تُحسِن عملاً – وليست لي صناعة ، وأخاف أنْ يرى مني ما يكره فيُطلِّقني ، ويكون فيَّ ما يكون فقال لها : قومي بارك الله فيك ، وادْعِي أختك الصغرى ، وكانت هذه هي بُهَيْثة التي نضرب بها المثل في هذا الموقف .
لما عرض عليها أبوها الأمر قالت : افعل ما ترى يا أبي ، قال : يا بُنيَّتي ، لقد عرضتُه على أُختيك فأبتَاهُ ، قالت : لكني أنا الجميلة وجهاً الصَّناع يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، فإنْ طلَّقني فلا أخلفَ اللهُ عليه ، فقال : بارك الله فيك . ثم قام إلى الحارث وقال : بُورِكَ لك يا حارث ، فإنِّي زوَّجتك ابنتي بهيثة ، فبارك الله لكما ، قال : وأنا قبلتُ زواجها .
ثم قال لامرأته : هَيِّئي ابنتك ، واصنعي لها فُسْطاطاً بفناء البيت ، ولما صُنع الفسطاط حُملت إليه بهيثة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج ، فسأله ابنُ سنان : أفرغتَ من شأنك؟ قال : لا والله ، يا بن سنان ، قال : ولِمْ؟ قال : جئتُ لأقترب منها . فقالت : أعند أبي

وإخوتي؟ والله لا يكون ذلك أبداً ، فخرجتُ .
فقال : ما دامتْ لا ترضى وهي عند أبيها وإخوتها ، فهيَّا بنا نرحل ، فأمر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال : يا بن سنان تقدَّم أنت – يعني : أعطنا الفرصة –0 فتقدَّم ابن سنان بالرَكْبِ ، وانحاز الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب خيمته ، ثم دخل عليها فقالت له : ما شاء الله ، أتفعل بي كما يُفعل بالسَّبِيَّة الأخيذة ، والأَمَة الجليبة؟ والله لا يكون ذلك حتى أذهب إلى أهلك وبلدك ، وتذبح لي الذبائح ، وتدعو سادة العرب ، وتصنع ما يصنعه مثلك لمثلي .

الشاهد هنا – وهو درس لبنات اليوم – أنها لم ترْضَ لزوجها ، ولم تقبل منه في بيت أبيها ، ولا في الطريق ، ولم تتنازل عن شيء من عِزَّتها وكبريائها ، مع أنها زوجته .
وفعلاً تمَّ لها ما أرادت ، وذُبِحَتْ لها الذبائح ، ودُعي لها سادات العرب ، فلما دخل عليها وحاول الاقتراب منها ، قالت : لقد ذكرتَ لي شرفاً ما رأيتُ فيك شيئاً منه ، فقال : ولِمْ؟ قالت : أتفرغُ لأمر النساء والعرب يقتلُ بعضُهم بعضاً – تريد الحرب الدائرة وقتها بين عبس وذبيان – اذهب فأصلح بينهما ، ثم عُدْ لأهلك ، فلن يفوتك مني شيء ، فذهب الحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عبس وذُبْيان ، وتحمَّلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير يُؤدُّونها في ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له : الآن لك ما تريد .
وهذه الآية { يأيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ . . . } [الأحزاب : 49] بظاهرها أعطتْ فهماً لبعض الناس الذين يريدون أن يتحلَّلوا من أحكام الدين في أشياء قد ترهقهم : فمثلاً الذي طلَّق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شُرِع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحلُّ له زوجته هذه إلا بعد أن تنكَح زوجاً غيره ، فيأتي مَنْ يقول – بناءً على الآية السابقة – ما دام النكاح هنا بمعنى العقد فهو إذن كَافٍ في حالة المرأة التي طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحِلّ لزوجها الأول بمجرد العقد على آخر .
ونقول : لكن فاتك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فُوِّض من ربه بالتشريع وبيان وتفصيل ما جاء في كتاب الله من أحكام ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . . . } [النحل : 44] .
فلو أن سُنَّة سول الله لم تتعرَّض لهذه المسألة ، لَكانَ هذا الفهم جائزاً في أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، لكن الذي أناط الله به مهمة بيان القرآن وقال عنه : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . . } [الحشر : 7] .
إذن : فهو صلى الله عليه وسلم له حَقُّ التشريع ، وقد بيَّن لنا المراد هنا في قوله تعالى : { حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ . . . } [البقرة : 230] .

فأبقى كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بيَّن المراد من ذلك ، فقال للرجل : « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها » إذن : تمام الآية لا يجيز لمن يقول : إن مجرد العقد يبيح للرجل أن يعيد زوجته التي طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلته ، ويذوق عُسيَلْتها ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذي تعوَّد الطلاق ، وسَهُلَ عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخَلْق ، ومن حرصه – تبارك وتعالى – على رباط الأسرة أنْ أحلَّ المرأة للرجل كما قلنا بكلمة زوَّجني وزوّجتك لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة إنما جعله على مراحل ثلاث؛ لُيبقِي للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإنِ استنفد الزوج هذه الفرص ، وطلَّق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن نحرق أنفك بأنْ تتزوج امرأتُكَ من زوجٍ غيرك زواجاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهي أصعب ما تكون على الزوج .

ونلحظ هنا أن دقَّة التشريع أو صعوبته في كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهِّب من أنْ تفعل ذلك ، يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله فيقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق » فالذين يعترضون على الطلاق في شرعنا ، ويتعجَّبون كيف يفارق الزوجُ زوجته بعد العِشْرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، وفاتَ هؤلاء أن الطلاقَ وإنْ كان الأبغض إلا أنه حلالٌ ، ويكفي أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذَّرَ الرجل أنْ يتساهل فيه ، أو يُجرِيه على لسانه ، فيتعوَّده .

ونلحظ أن الحق سبحانه خصَّ المؤمنات في قوله : { إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات . . . } [الأحزاب : 49] مع أن المؤمن يُبَاح له أنْ يتزوج من الكتابية ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكأن في الآية إشارةً لطيفة لمن أراد أنْ يتزوج فليتزوج مؤمنة ، ولا يُمكِّن من مضجعه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط في الدين ، فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عِرْضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تُؤتمن على هذا كله .

وقد رأينا بعض بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وتزوجوا من أجنبيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تنسى أنها يهودية أو نصرانية ، وتبثّ أفكارها ، ومعتقداتها في الأولاد ، إذن : فعلى المؤمن أنْ يختار المؤمنة؛ لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته .

وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كنا نُسْأل : لماذا أبحتُم لأنفسكم أنْ تتزوجوا الكتابية ، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة؟ وكان بعض الآباء يأتون ببناتهم اللائي وُلِدْن في ألمانيا مثلاً ، وكانت البنت تُحاج والدها بهذه المسألة ، لماذا لا أتزوج ألمانياً كما تزوجْتَ أنت ألمانية؟

فكنا نرد على بناتنا هناك : بأن المسلم له أن يتزوج كتابية؛ لأنه يؤمن بكتابها ، ويؤمن بنبيِّها ، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابي ، وهو لا يؤمن بكتابك ، ولا يؤمن بنبيك؟ إذن : فالمسلم مُؤْتَمن على الكتابية ، وغير المسلم ليس مُؤتمناً على المسلمة .

وقوله تعالى : { فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [الأحزاب : 49] وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس هذه المسألة : { وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ . . . } [البقرة : 237] .

ويمكن أنْ نُوفِّق بين هاتين الآيتين بأن الأولى نزلتْ فيمَنْ لم يُفْرض لها مهر ، والثانية فيمَنْ فُرِض لها مهر ، التي لم يُفرض لها مهر لها المتعة { فَمَتِّعُوهُنَّ . . . } [الأحزاب : 49] والتي فُرض لها مهر لها نصفه ، فكل آية تخصُّ وتعالج حالة معينة ، وليس بين الآيتين نَسْخ .

وبعض العلماء يرى أنه لا مانع ، إنْ فُرِضَ لها مهر أنْ يعطيها المتعة فوق نصف مهرها ، وهذا رأي وجيه ، فالعدل أنْ تأخذ نصف ما فُرِض لها ، والفضل أنْ يعطيها المتعة فوق هذا النصف ، وينبغي أنْ تبنى المعاملات دائماً على الفضل لا على مجرد العدل ، وربنا عز وجل يُعلِّمنا ذلك ، حين يعاملنا سبحانه بفضله لا بعدله ، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا جميعاً .

لذلك جاء في دعاء الصالحين : اللهم عاملْنَا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . نعم ، فإن لم يكُنْ في الآخرة إلا الحساب ، فلن يكسب منا أحدٌ ، وقد ورد في الحديث : « مَنْ نُوقِشَ الحساب عُذِّب » .

ويقول سبحانه : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .

فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضْل الله ، وتعمُّك رحمته ، وفي الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمدني الله برحمته » .

فإنْ قُلْتَ : فكيف نجمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة ، وبين مكانة العمل ومنزلته في مثل قوله تعالى : { ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] .

قالوا : صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله لا تُقدم لله تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مُقدَّمة من الله لك في مشروعية العبادة ، وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلقك وخلق الكون كله لك ، فإنْ كلَّفك بعد ذلك بشيء ، فإنما هو لصالحك ، كما تكلف ولدك بالجد والمذاكرة .

ثم لو أنك وضعتَ عملك في كِفَّة ، ونِعَم الله عليك في كفة لما وفَّتْ أعمالك بما أخذْتَه من نِعَم ربك . إذن : إنْ أثابك بعد ذلك في الآخرة فإنما بفضله تعالى عليكَ ورحمته لك .

ومثَّلْنا لذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – بقولك لولدك : لو نجحتَ آخر العام سأُعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه إلا أنك تزيده؛ لأنك مُحِبٌّ له وتحب له الخير .

إذن : ينبغي أنْ نتعامل بهذه القاعدة ، وأنْ نتخلَّق بهذا الخلق ، خاصة في مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التي طُلِّقَتْ قبل الدخول بها .

فإنْ قُلْتَ : ولماذا تأخذ الزوجة التي طُلِّقت قبل الدخول بها نصف المهر والمتعة أيضاً؟ نقول : هو عِوَض لها عن المفارقة ، فإنْ كانت هي المُفَارقة الراغبة في الطلاق ، فليس لها شيء من المهر أو المتعة ، إنما عليها أنْ تردَّ على الزوج ما دفعه ، كما جاء في حديث المرأة التي جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، فقال لها : « رَدِّي عليه ما دفعه لك » وهذه العملية يسميها العلماء (الخُلْع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال : { وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [الأحزاب : 49] .

السَّرْح في الأصل : شجر له ثمر ، يوجد في البوادي ، ترعاه الماشية وتحبه ، فالكبيرة منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة فيتعهدها الراعي إنْ كان عنده دقة رعاية ، بأنْ يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغار .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : { وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] .

ورُوى أن سيدنا عمر مرَّ على راعٍ فقال له : يا راع ، فنظر الراعي إلى أمير المؤمنين ، وقال : نعم يا راعينا – يعني : أنا راعي الغنم وأنت راعي الراعي ، فكأنه لا يتكبر راعٍ على راعٍ – فقال عمر : يا هذا في الأرض التي تبعد عنك كذا وكذا سَرْح أجمل من هذا وأخصب ، فاذهب إليه بماشيتك .

وهذا درس في تحمُّل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضي الله عنه خير مَنْ تحمَّل هذه المسئولية ، فيُرْوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابري السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم مَنْ يحمل بضاعته ، ومنهم مَنْ يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجتريء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، في الفلاحين يقول الذاهب في الصباح إلى الحقول (نسْرَحْ) وللعودة آخر النهار (نروح) ، ثم تُدوول هذا اللفظ فأُطلق على كل خروج إلى شيء ، ومن ذلك نقول : اعطني التسريح ، فكأني كنت محبوساً فسمح لك بالخروج ، ومن ذلك تسريح الزوجة .

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله { سَرَاحاً جَمِيلاً } [الأحزاب : 49] وكل شيء

وُصِف في القرآن بالجمال له مزية في ذاته ، كما في { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . } [يوسف : 18] وتسريح الزوجة عادة ما يصاحبه غضب وانفعال ، فينبغي أنْ يكون التسريح جميلاً لا عنفَ فيه ، كأنْ يُطيِّب خارطها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو الله أن يُعوِّض عليك بخير مني أو غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها ، ويكفي أن تتحمل هي ألم المفارقة ومصيبة الطلاق . وأيُّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسُّباب والشتائم ، ويؤذيها بأن يمنعها حقاً من حقوقها .

وهذه الآية عالجتْ قضية هامة من قضايا الأسرة؛ لأنها مرادة للحق سبحانه ، فالله تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه الزوجة ليُحقِّق منهما الخلافة في الأرض ، لكن لماذا هذه الخلافة؟ قالوا : ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته في كونه ، كما تسعد أنت حين تأتي لأولادك بما لَذَّ وطابَ من الطعام ، وتفرح حين تراهم يأكلون ويتمتعون بما جئتَ به ، تفرح لأنك عدَّيْتَ أثر قدرتك للغير – ولله تعالى المثل الأعلى – .

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة في الأرض ثم حدد مهمته ، فقال : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا . . . } [هود : 61] إذن : لا بُدَّ أنْ يضمن لهذا الخليفة مُقوِّمات حياته ومُقوِّمات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمُقوِّمات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش في الدنيا وحيداً لآخر الزمان .

واستبقاء الحياة يكون بالقوت؛ لذلك فإن ربك عز وجل قبل أنْ يستدعيك إلى الوجود ، وقبل أنْ يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فأعدَّ للخليفة كل مُقوِّمات حياته .

واقرأ قول الله تعالى : { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 10] .

إذن : فمخازن القوت مملوؤة { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] وما دام خالق البشر قدَّر لهم الأقوات مُقدَّماً ، فليست لك أن تقول « انفجار سكاني » قُلْ : إنك قصرْتَ في استنباط هذا القوت بما أصباك من كسل أو سوء تخطيط .

ونلحظ هذا المعنى في قوله تعالى : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

ومن الكفر بنعمة الله سَتْرها بالكسل والقعود عن استنباطها ، وقد يَشْقي جيل بكسل جيل قبله ، لذلك لما تنبَّهنا إلى هذه المسألة ، وبدأنا نزرع الصحراء ونُعمِّرها انفرجتْ أزمتنا إلى حَدٍّ ما ، ولو بكَّرْنا بزراعة الصحراء ما اشتكينا أزمة ، ولا ضاقَ بنا المكان .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أنه إذا ضاق بنا المكان ألاَّ نتشبثَ به ، ففي غيره سعة ، واقرأ : { إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . } [النساء : 97] .

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ، حتى في الخلوة الليلية معه : { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل . . . } [المزمل : 20] إلى أن يقول : { عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى . . . } [المزمل : 20] والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله . . . } [المزمل : 20] .

إذن : قانون الإصلاح الذي جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب في الأرض والسَّعْي في مناكبها ، وفيه مُقوِّمات الحياة ، ثم نقاتل في سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعاً لأعدائها؛ لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة ، تعيش على صدقات الأمم الغنية؛ لأنها كفرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعْطي للفقراء ، إنما يُرْمي في البحر ويُعدَم ، لتظل لهم السيادة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أنْ نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتي بكفر نعم الله ، إما بسترها وعدم استنباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد .

ولأهمية القوت يأتي في مقدمة ما يمتنُّ الله به على عباده في قوله : { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 4] .

وكما ضَمن الحق سبحانه للخليفة في الأرض مُقوّمات حياته ضَمِن له أيضاً بقاء نوعه ونَسْله ، وجعل ذلك بالزواج الذي شرَّعه الله؛ ليأتي النسل بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة خسيسة دَنِسة ، وفَرْق بين هذا وذاك ، فالولد الشرعي تتلقفه أيدي الوالدين وتتباهَى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلَّص منه أمه وهو جنين تخلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها .

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم ونظافته وسلامته ، مجتمع يكون جديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد في الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا ، فإنِّي مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة » .

ثم يقول الحق سبحانه : { ياأيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا . . . } .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ

وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50)

الحق – تبارك وتعالى – لم يخاطب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه العَلم أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال : يا نوح ، يا عيسى ، يا موسى ، يا إبراهيم . . إلخ ، أما رسول الله ، فناداه ربه بقوله { يأيها النبي . . . } [الأحزاب : 50] و { يأيها الرسول . . . } [المائدة : 41] .

ونداء الشخص باسمه العَلَم دليلٌ على أنه ليستْ له صفة مميزة ، فإنْ ملك صفة مميزة نُودِي بها تقول : يا شجاع ، يا شاعر . . إلخ ، الآن الجميع يشتركون في العَلَمية . إذن : فنداء النبي صلى الله عليه وسلم ببأيها النبي ، وبأيها الرسول تكريم له صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : { إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . } [الأحزاب : 50] ما معنى { أَحْلَلْنَا . . . } [الأحزاب : 50] هنا ما دام الحديث عن أزواجه صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : معناها أنها كانت في منطقة مُحرَّمة ثم أحلَّها الله له أي : جعلها حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها { اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ . . . } [الأحزاب : 50] كأن رسول الله أخذ بالحِلّ أولاً ، بدليل أنه آتى الأجر والمهر .

ولقد كان للعلماء وَقْفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا : كيف يُسمِّي المهر أجراً ، ومعنى الأجر في اللغة : جُعْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها المُستأجر للمُستأجِر ، أما النكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه نية التأبيد والدوام؟

وللجواب على هذه المسألة نقول : لا يصح أنْ تُؤخَذ الآيات ، منفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغي أنْ نجمع الآيات الواردة في نفس الموضوع جَنْباً إلى جنب؛ ليأتي فهمها تاماً متكاملاً .

فالحق سبحانه يقول في موضع آخر مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم في شأن زوجاته : { تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ . . . } [الأحزاب : 51] أي : تؤخر استمتاعك بها { وتؤوي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ . . . } [الأحزاب : 51] أي : تضمُّها إليك .

إذن : ما دام لك أن ترجيء أزواجاً منهن وتمنعهن من القسمة ، ثم تضم غيرهن ، فكأن المنفعة هنا موقوتة ، فناسب ذلك أن يُسمَّى المهر أجراً .

والحق سبحانه يعطي نبيه صلى الله عليه وسلم في كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها ، فقوله تعالى : { اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ . . . } [الأحزاب : 50] دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما انتفع بهن إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن ، في حين أن للإنسان أنْ يسمى المهر ، ويدخل بزوجته دون أن يدفع من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مُؤخَّراً ، لكن تأخير المهر يعطي

للمرأة حق أنْ تمتنع عن مضاجعته ، فإنْ سمحَتْ له فهو تفضُّل منها . إذن : فرسول الله اختار أكمل شيء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وجعله ربه أُسْوة سلوكية في الأمور التي يعزُّ على الناس أن يستقبلوها ، فنفَّذها رسول الله في نفسه أولاً كما قلنا في مسألة التبني .

كذلك في مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أُرسِل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أنْ يحدد هذا التعدد تحديداً يمتص الزائد من النساء ، ولا يجعله مباحاً في كل عدد ، فأمر رسوله أن يقول لأمته : مَنْ كان عنده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ، ويفارق ما زاد عنهن ، في حين كان عنده صلى الله عليه وسلم تسع زوجات .

فلو أن الحكم شمله ، فأمسك أربعاً ، وسَرَّح خمساً لأصابهُنَّ ضرر كبير ، ولصِرْنَ مُعلَّقات؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله .

إذن : الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء التسعة بذواتهن ، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أنْ يتزوَّج بغيرها؛ لأن الله خاطبه بقوله : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 52] .

وقد بيَّنا للمستشرقين الذين خاضوا في هذه المسألة أن رسول الله لم يُسْتثْن في العدد ، إنما استُثنى في المعدود ، حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن ، وليس له أنْ يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فلن أنْ يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألاَّ يزيد عن أربع في وقت واحد .

وكلمة { أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . } [الأحزاب : 50] جاءت قبل { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ . . . } [الأحزاب : 52] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت : ما مات رسول الله حتى أبيح له أنْ يتزوج ما شاء ، فكيف ذلك؟

قالوا : لأن الله تعالى أراد أنْ يعطي لرسوله تميُّز الوفاء لأزواجه ، فمع أن الله أباح له أنْ يتزوج بغيرهن ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل وفاءً لهُنَّ ، والرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك لأنه كان إذا حُيي بتحية يُحييّ بأحسن منها أو يردُّها بمثلها ، وقد رأى صلى الله عليه وسلم من أزواجه سابقة خير حين خيرَّهُنَّ فاخترْنه وفضَّلْن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكأنه يردُّ لهم هذه التحية بأحسن منها .

ومجيء { أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . } [الأحزاب : 50] قبل { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ . . . } [الأحزاب : 52] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، فالله قد أحل له قبل أنْ يُحرِّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . } [التوبة

: 43] فسبُق العتاب بالعفو .

ونلحظ في قوله تعالى : { إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . } [الأحزاب : 50] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكَّر ولم يقل زوجاتك؛ لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج في اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس الزوج يعني الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهي تعني الواحد الذي معه غيره ، فكل منهما يسمَّى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين . . . }

[الأنعام : 143] .

ثم يقول تعالى : { وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ . . . } [الأحزاب : 50] نعرف أن ملْك اليمين يُقصَد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى : { مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ . . . } [الأحزاب : 50] احتياط ، فمِلْك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعي ، جاء من الفيء والمراد أسرى الحروب .

وقد باشر صلى الله عليه وسلم عملية السَّبْي بنفسه؛ لأن من الإماء حرائر أُخِذْنَ عُنْوة أو سُرِقْنَ ، ومنهم من بيعتْ في سوق الرقيق على أنها أَمَة ، وهذا ما رأيناه فعلاً في قصة سيدنا زيد بن حارثة ، إذن : فقوله تعالى : { مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ . . . } [الأحزاب : 50] أي : أنك ملكتها ، وأنت واثق تمام الثقة أنها أمَة وَفَيءٌ أحله الله لك .

{ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين . . . } [الأحزاب : 50] .

وكذلك أحلَّ الله لنبيه أنْ يتزوّج من بنات عمه ، أو بنات عماته ، أو بنات خاله ، أو بنات خالاته ، والعمومة : أقاربه من جهة أبيه ، والخئولة أقاربه من جهة أمة ، ونلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته .

والمعنى أن الله تعالى أحلَّ له أنْ يتزوَّج من هؤلاء ما وُجد؛ لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره .

وحين تتأمل هذه الآية نجد أن العم والخال جاءت مفردة ، في حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا؟ قالوا : لأن العم والخال اسم جنس ، واسم الجنس يُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، بدليل أنك تجد اسم الجنس في القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما في { والعصر* إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 1-3] .

فالإنسان اسم جنس مفرد ، واستثني منه الذين آمنوا وهي جمع ، أما العمَّات والخالات فليستْ

اسم جنس؛ لذلك جاءتْ بصيغة الجمع المؤنث .

وأيضاً ، لأن العم صِنْو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم في منزلة الأب ، واقرأ في ذلك قوله تعالى : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . . } [البقرة : 133] فدخل العَمُّ في مُجْمل الآباء .

وكذلك سَمَّي العمَّ أباً في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ . . . } [الأنعام : 74] ومعلوم أنه كان عمه .

وفي موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى : { لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ . . . } [النور : 61] .

فجاءت العم والخال هنا بصيغة الجمع ، لماذا؟ قالوا : لأن الحديث هنا عن البيوت التي يُبَاح لك أنْ تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أنْ تأتي (أعمامكم) و (أخوالكم) بصيغة الجمع .

ثم يقول تعالى : { وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ . . . } [الأحزاب : 50] الوَهْب : انتقال ملكية بلا مقابل ، نقول : فلان وهبك كذا يعني : أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : أتعجبُ لامرأة تبتذل نفسها ، وتعطي نفسها لرجل هكذا مجاناً بلا مقابل ، فنزل النص { وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ . . . } [الأحزاب : 50] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : « وأنت يا عائشة ، لو اتقيتِ الله لسارع في هواك » .

والمعنى : أن الله يسارع في هواي ، لأنني سارعتُ في هواه ، طلب مني فأدَّيْتُ؛ لذلك يُلبي لي ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

وقال { وامرأة مُّؤْمِنَةً . . . } [الأحزاب : 50] لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإنْ كانت كتابية لا يصح أن تهبَ نفسها للنبي ، لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له؟ قالوا : لا ، إنما لا بُدَّ من القبول ، فإنْ قالت المرأة لرسول الله : أنا وهبتُ نفسي لك لا بُدَّ أنْ يقبل هو هذه الهبة؛ لذلك علَّق على هذه المسألة بقوله { إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا . . . } [الأحزاب : 50] لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول .

وللعلماء كلام في هذه المسألة ، فبعضهم قال : لم يأخذ رسول الله امرأة بهبة أبداً ، وقال آخرون : بل عنده أربع موهوبات هُنَّ : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وليس في هذا التعارض (فزورة) ، فمن السهل أنْ نجمع بين هذين القولْين؛ لأن الله تعالى قال : { وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا . . . } [الأحزاب : 50] فربما وهبَتْ نفسها للنبي ، لكنه لم يُرِد ، أو وهبتْ نفسها للنبي ، فأراد أنْ يكرمها ، وأنْ يجعل لها مهراً ويتزوجها .

وكلمة { يَسْتَنكِحَهَا . . . } [الأحزاب : 50] مثل ينكحها ، فهما بمعنىً واحد ، مثل : عَجِل واستعجل .

ومعنى { خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين . . . } [الأحزاب : 50] أن الله تعالى خَصَّ رسوله بأشياء ميَّزة بها؛ لأن مهمته صلى الله عليه وسلم ليستْ مع نفسه هو ، إنما مهمته مع الناس جميعاً ، وليس للناس المعاصرين له فحسب ، إنما جميع الناس حتى قيام الساعة .

إذن : فمشغولياته صلى الله عليه وسلم كثيرة كبيرة ، كما قال سبحانه : { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل : 5] .

لذلك أراد الحق سبحانه ألاَّ يشغله شيء عن مهمته هذه ، وأراد أنْ يتوفر رسول الله لأداء هذه المهمة التي هو بصددها ، بحيث إذا ما عشق عملية البلاغ عن الله واندمج فيها ومعها تموت في نفسه كلُّ الأهواء ، ولا يبقى إلا انشغاله بمهمة الدعوة .

بدليل أن الوحي في أوله كان يجهد سيدنا رسول الله ، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً ، ويذهب إلى أهله فربما يقول : زَمِّلوني زمِّلوني ، ودثِّروني دثِّروني ، ثم شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففتر الوحي فترة عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه ، وهدأتْ طاقته ، وبقيت معه حلاوة ما أوحي إليه هذه الحلاوة التي جعلتْ سيدنا رسول الله يتشوَّق للوحي من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسِيك التعب في سبيله .

وفي ذلك قوله تعالى : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 1-5] .

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحي : إن ربَّ محمد قلاه ، ففي الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه ، أما حين الخلوة والجَلْوة قالوا : مُفْترٍ وكذَّاب وشاعر . . إلخ .

ومعنى { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى } [الضحى : 4] يعني : ستكون عودة الوحي خيراً لك من بدايته؛ لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما في الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرأة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون

تعب أو إجهاد .
إذن : فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج في المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحي لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الاجتهاد .
ثم يقول سبحانه : { قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . . } [الأحزاب : 50] أي : من العدد الذي حُدِّد بأربعة ، ومن المهر الذي سُمِّي ساعة العقد ، والمراد أن لكلٍّ حكمه وقانونه ، فلكَ يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم .
وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التي يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد في مصر لم يصل إلى حَدِّ الظاهرة ، وليس وباءً كما يُصوِّره البعض .
فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة ، والذين عددوا بثلاث واحد في الألف ، والذين عدَّدوا بأربع نصف في الألف ، فلماذا إذن إثارة الناس ضد ما شرع الله ، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء؟
وتأتي الزوجة تشتكي : بعد أنْ عِشْتُ معه كذا وكذا ، وخدمته كذا وكذا يتزوج عليَّ؟ فأقول لها : أضَرَّك أنتِ؟ تقول : نعم ، أقول : لكنه نفع أخرى ، فواحدة بواحدة ، ولماذا ننظر إلى المتزوجة ، ونغفل التي لم تتزوج ، أليس من حقِّها هي الأخرى أن تتزوج؟
ثم إن المرأة التي قبلَتْ أن تكون الثانية ما قبلت إلا لأنها لم تستطع أنْ تكون الأولى ، وكذلك الثالثة ما قبلتْ ، إلا لأنها لم تستطع أن تكون الثانية .

. إلخ ثم نقول لهؤلاء : أألزمك ربك أنْ تعدد؟ هذه مسألة أباحها الشارع لحكمة ، ولم يلزمك بها ، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة .
والذين أثاروا الضجة في تعدُّد الزوجات أثاروا أكثر منك في مسألة مِلْك اليمين في الإسلام ، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين : كيف يجمَع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من ملْك اليمين؟
ومعلوم أن مِلْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام ، وظل موجوداً حتى دعا القانون الدولي العام إلى منع ظاهرة العبودية ، ودعا إلى تحرير العبيد ، فسرَّح الناس ما عندهم من العبيد ، وكان منهم مَنْ يشتري العبيد من أصحابهم ثم يُطلِق سراحهم .
ومن هؤلاء العبيد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسيده مرة أخرى يريد العيش في كنفه وفي عبوديته مرة أخرى؛ لأنه ارتاح في ظل هذه العبودية ، وعاش في حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول : أنا عتيق آل فلان .
والمنصف يجد أن مِلْك اليمين في الإسلام ليست سُبَّة فيه ، إنما مفخرة للإسلام؛ لأن مِلْك اليمين

وسيلته في الإسلام واحدة ، هي الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء لينشيء رِقاً ، إنما جاء لينشيء عتقاً .

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التي يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد في عِتْق عبده ، في حين كانت منابع الرقِّ كثيرة متعددة ، فكان المدين الذي لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص وقُطَّاع الطرق يسرقون الأحرار ، ويبيعونهم في سوق العبيد . . إلخ .

فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْي في حرب مشروعة ، وحتى في الحرب ليس من الضروري أن ينتج عنها رِقٌّ؛ لأن هناك تبادلَ أسري ، ومعاملة بالمثل ، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس ، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة ، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته ، واقرأ في ذلك قوله تعالى : { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا . . . } [محمد : 4] .

لأن الحرب ما شُرِعَتْ في الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين ، لكن ليُحمي اختيارهم للدين ، بدليل أن البلاد التي دخلها الفتح الإسلامي بقي فيها كثير من الناس على كفرهم ، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التي يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التي تؤديها إليه الدولة .

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسري ، وعلى المجتمع الظالم الذي ينتقد الإسلام في هذه الجزئية أن يعلم أن الذي أَسرْتَه في المعركة قد قدرْتَ عليه ، وتمكَّنْتَ منه ، وإنْ شئت قتلتَهُ ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير مِلْكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، إما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأنْ يخدمك بنفسه .

إذن : المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هي بين رِقٍّ وقتل .

إذن : مشروعية الرق في أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقِنَ دم المأسور ، وتعطي الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظَلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك في الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أباح الله لك أنْ تأسره ، وأن تملكه إلا لكي تَحْقِنَ دمه ، لا أن تُذِلَّهُ .

واقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خَولَكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليُطْعمه مما يطعم ، وليُلبِسْه مما يلبس ، ولا يُكلِّفه ما لا يطيق ، فإن كَلَّفه فَلْيُعِنه » .

فأيُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدي إلى عِتْقه وحريته ، فإنْ كان للرقِّ في الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق في الكفارات وهي في تكفير الذنوب التي بين العبد وربه .

فإذا لم تكُنْ هناك ذنوب فقد رغَّبنا الشرع في عِتْق الرقاب لاجتياز العقبة كما في قوله تعالى : { فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ } [البلد : 11-13] .

هذا إنْ كان الأسير رجلاً ، فإنْ كان امرأة ، ففيها نفس التفصيل السابق ، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة – وهي في بيت سيدها – وضعها خاصاً ، فهي ترى سيدتها تتمتع بزوجها ، وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل هذه الأمور ، وهي تقف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل ، فيكرمها الله حين يُحلّها لسيدها ، فيكون لها ما لسيدتها الحرة ، فإذا ما أنجبتْ لسيدها ولداً صارت حُرَّة به ، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق .

وقوله تعالى : { لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ . . . } [الأحزاب : 50] هذه هي الهبة الخالصة للنبي صلى الله عليه وسلم دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا نريد أنْ نُحمِّلك ضيقاً في أيِّ شيء لتفرغ أنت لمهمتك الصعبة . { وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الأحزاب : 50] .

ثم يقول الحق سبحانه : { تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ . . . } .

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51)

قوله { تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ . . . } [الأحزاب : 51] أي : تؤخر مَنْ تشاء من زوجاتك عن ليلتها { وتؤوي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ . . . } [الأحزاب : 51] أي : تضم إليك ، وتضاجع مَنْ تشاء منهن { وَمَنِ ابتغيت . . . } [الأحزاب : 51] من طلبتَ من زوجاتك وقرَّبت { مِّمَّنْ عَزَلْتَ . . . } [الأحزاب : 51] أي : اجتنبتَ بالإرجاء والتأخير { فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ . . . } [الأحزاب : 51] أي : لا إثم ولا حرج .

{ ذَلِكَ أدنى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ . . . } [الأحزاب : 51] أي : أنهُنَّ جميعاً سيفرَحْنَ ، التي تضمها إليك ، والتي تُرجئها وتؤخرها ، وسوف يرضيْنَ بذلك؛ لأنهن يعلَمنَ أن مشيئتك في ذلك بأمر الله ، فالتي ضمها رسول الله إيه تفرح بحب رسول الله ولقائه ، والتي أُخِّرَتْ تفرح؛ لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها مرة أخرى وضمَّها إليه وقرَّبها ، وهذا يدل على أن لها دوراً ومنزلة ، وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعني أنه كرهها أو زهد فيها ، فإنْ فعلْتَ ذلك يا محمد – مع أن فيه مشقة – فإنما فعلْتَه طاعة لأمر مَنْ؟ لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه .

وحين نتأمل كلمة { تَقَرَّ . . . } [الأحزاب : 51] تجد أنها كعامة كلمات القرآن (كالألماس) ، لكل ذرة تكوينية فيه بريق خاص وإشعاع؛ لذلك يقولون عنه : (دا بيلالي) ومع كثرة بريقه لا

يطمس شعاعٌ فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن .

(قرَّ) وردتْ كثيراً في القرآن كما في { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ . . . } [القصص : 9] .

كلمة قرَّ معناها سكن ، نقول : قَرَّ بالمكان أي : استقر فيه وسكن ، والقرّ هو البرد ، وقُرَّة العين تأتي بالمعنيين ، فالعين تسكن عند شيء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إنْ كان جميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون : فلان قيْد النظر .

وفي المقابل يقولون : فلان عينه زائغة يعني : لا تستقر على شيء أو (عينه دشْعَة) عند إخواننا الذين ينطقون الجيم دالاً مثل (دِرْدَة) يقصدون جرجاً ، والعين الجشعة بنفس المعنى ، وفي المعنى السياسي يقولون : فلان له تطلُّعات يعني : كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُّ بمعنى البرودة ، فَقُرَّة العين تعني : برودتها ، وهي كناية عن سرورها؛ لأن العين لا تسخُن إلا في الحزن والألم؛ لذلك ثبت أخيراً أن حبة العين (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحته أو مرضه .

ولأهمية العين نقول في التوكيد : جاءني فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحراري في جسم الإنسان وقلنا : إن من المعجزات في تكوين الإنسان أن الاستطراق الحراري في جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو في الجسم بحرارة تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية 37 – ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالي ، وهي كذلك عند سكان خط الاستواء – فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن 40 مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر .

إذن : فقُرَّة عَيْن زوجات النبي وسُرورهن في مشيئته ، حين يُقرِّب إليه مَنْ يُقرِّب ، أو يؤخر من يؤخر؛ لأن مشيئته نابعة من أمر الله له .

وقوله تعالى : { وَيَرْضَيْنَ بِمَآ آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ . . . } [الأحزاب : 51] أي : في أيِّ الحالات ، ثم جاء قوله تعالى : { والله يَعْلَمُ مَا فِي قلُوبِكُمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَلِيماً } [الأحزاب : 51] ليشير إلى أن الرضا هنا ليس هو رضا القوالب ، إنما يراد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أنْ يكون في النفوس دخائل أو اعتراض .

فالله سبحانه { وَكَانَ الله عَلِيماً . . . } [الأحزاب : 51] يعلم ما في القلوب { حَلِيماً } [الأحزاب : 51] لا يجازيكم على ما يعلم من قلوبكم ، ولو جازاكم على قَدْر ما يعلم لأتعبكم ذلك .

وتأمل حِلْم الله علينا ورحمته بنا في مسألة البدء ببسم الله ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا أن كل عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر أي : مقطوع البركة ، فالإنسان حين يبدأ في الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن بتسخير مَنْ خلقه له ، فحين تقول : بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإنك تفعل

باسم الذي سخَّر لك هذا الشيء .
لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } [الزخرف : 12-13] .
فعليك أنْ تبدأ ببسم الله حتى إنْ كنتَ عاصياً لله ، إياك أن تظنَّ أنك لسْتَ أهلاً لهذه الكلمة؛ لأن ربك حليم ، ورحمن رحيم .
ثم يقول الحق سبحانه : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ . . . } .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية في إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصها هنا في أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحلَّ له في قوله : { ياأيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . } [الأحزاب : 50] ثم قيد هذا التحليل هنا ، فقال : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 52] .
فالحق سبحانه يأتي بالمخفَّف في أشياء ، ثم يأتي بالمثقّل؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه { عَفَا الله عَنكَ . . . } [التوبة : 43] قبل أنْ يعاتبه بقوله : { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . } [التوبة : 43] .
وهذه الآية { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 52] توضح أنْ ما شُرِع لرسول الله في مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعالى في المعدود لا في العدد ، والفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود أن العدد يُدَار في أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم تُوفِّين لَكَان له أن يتزوج بتسع أُخَر ، وإنْ ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .
لكن الاستثناء لم يكُنْ لرسول الله في العدد كأمته ، إنما في المعدود ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن ، والحكمة في ذلك أن التي يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .
ثم أوضحنا أن مسألة مِلْك اليمين ليستْ سُبَّة في جبين الإسلام ، إنما هي ميزة من ميزاته ، فالله مَلَك الرقبة ليحميها من القتل ، والمقارنة هنا ليستْ بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا ، والذي يتأمل حال المملوك أو المملوكة في ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع في هذه المسألة .
ثم يقول الحق سبحانه : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)

الحق – سبحانه وتعالى – وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول في أول السورة { ياأيها النبي اتق الله . . . } [الأحزاب : 1] أمر أمته بذكْره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كذلك عن أمر يتعلق بأمته في قوله { ياأيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ . . . } [الأحزاب : 49] .

بعد ذلك لرسول الله : { ياأيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً } [الأحزاب : 45] ليُبيِّن عموم نَفْعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته صلى الله عليه وسلم ، فقال هنا : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ . . . } [الأحزاب : 53] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقلنا : إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتربية والإنعام والتفضُّل ليس خاصاً بالمؤمنين ، بل لكل مَن استدعاه الله لوجود من مؤمنين وكافرين .

فالشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروى أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب للكل ، فالذي يُحسِن أَخْذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصيبه موقوتاً بمدى الربوبية في الدنيا { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذي لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شحاذاً يستجدي قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خَلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أَوْلَى بالمؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عن رَكْب الحضارة ، وإنْ كانت الحضارة التي وصل إليها الكفار اليوم حضارة في الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ في هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هذه البلاد وتنزل مثلاً في فندق – كما نزلنا – تجد مكتوباً على باب الحجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضروریاتك . إذن : ارتقوا في شيء ، وانحدروا في أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم في الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْلٍ للفرد في العالم تجده في

السويد ، ومع ذلك تكثر عندهم الأمراض النفسية والعصبية والانتحار والجنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّرتْ هذه البلاد حضارة مادية؛ لأنهم أخذوا بأسبابها ، فأتقن كُلٌّ عمله ، وأعطى وقت العمل للعمل ، فما بين الثامنة إلى الثانية عشرة لا تجد إنساناً في الشارع ، ولا تجد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضيع وقت العمل ، وفي وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادي ، فالذي لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمد لله أن شبابنا تنبهوا إلى أهمية العمل وتخلَّوْا عن الطفولة التي كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سبحانه هنا يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله ، ويجعله لنا قدوة ، فهو صلى الله عليه وسلم عاش عيشة الكفاف مطعماً وملبساً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجرات ، لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة ، فليس لديه حجرة صالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله في بيوته .

فقال سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ . . . } [الأحزاب : 53] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أي : للمبيت فيه ، والمبيت في الأغلب الأعَمّ لليل ، فهو محل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلُّ الحركة ، ولا بد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوي بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفيء إليه؛ لذلك سُمِّي البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سَكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغي أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعري ، وسُمِّي الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان؛ لأنه تأوي إليه المعاني ، كما نأوي نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعاني تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقي رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً – يعني : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أي : التي لا زينة لها – ما لم تُزيّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبي والمعري وشوقي . . إلخ .

والبيتوتة في كل شيء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل في البيات أن يكون ليلاً ، وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته

سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .
لذلك فإن أهل الحكمة عندنا في الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعني : بالليل (لا يحرث) يعني : بالنهار؛ لأن الإنسان إنْ انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .
بصرف النظر ، أكان وقت الراحة في الليل أو في النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التي تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة في ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : { مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . } [الروم : 23] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعي طبيعة عمله أن يعمل بالليل .
والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوي إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونِعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعي مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .
وكما يتفاوت الناس في البيوت ، كذلك يتفاوتون في ترف الحياة وأسباب الراحة في البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغي أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .
وكما يقول المثل (على قدر لحافظ مِدّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا تفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضياً به ، وإنْ تمردَّتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذي يوفر لك ما تتطلع إليه .
وآفة الناس في اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفي الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أُحدِّد مستوى حياتي على ضوء دَخْلي وإمكاناتي ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شيء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعي الحلال في الكسب وفي الإنفاق .
وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغي أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتليء قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .
إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما في أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب أباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذي يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذي يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذي يعرق

ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذي عرق وكدَّ ولم يجد ثمرة عرقه؟
فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل في شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة؛ لذلك يراعي سيدنا رسول الله هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم :
« أعْطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه » .
أما الذين يتسكعون في الشوارع أو على القهاوي فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكمرية حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذي لا يعطي للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت .

ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله؛ لأنه لم يعرق به .
واقرأ إنْ شِئْتَ قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله في نهابر » والمهاوش هي الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذي نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هي الأبواب التي تُفتح لصرف هذا المال لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .
والناس يختلفون في نظرتهم إلى النعمة في أيدي الآخرين فقويُّ الإيمان ساعة يرى النعمة في يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْل الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها؛ لأنه جَدَّ واجتهد .
المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطني من نعمك ، المؤمن يرى في نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً نعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .
أما غير المؤمن – والعياذ بالله – فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أَهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله في خَلْقه .
ونُسمِّي المساجد بيوت الله ، وسُمِّي المسجد بيت الله؛ لأنه جُعِل خصيصاً لكي نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُقعد الصفقات في المساجد ، أو تُنشَد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لمن عقد صفقة تجارية في بيت الله : « لا بارك اللهُ لك في صفقتك » وقال لمن نشد ضالته

في المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك » .
لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى في وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية؟
كذلك أنت صَنْعة الله وخِلْقته ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .
لذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة ، ففي الصلاة ترمي بنفسك وترمي بهمومك ومشاكلك في (أحضان) ربك؛ لأنه سبحانه أعطى الكون أسباباً ، فإذا عزَّتْ عليك الأسباب ولم تُفِدْكَ بشيء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله؛ لذلك جعله الله قِبْلة كل البيوت ، فإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .
نعود إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وما ينبغي أنْ يتحلى به المؤمنون من أدب في دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَي في دخول هذه البيوت بالذات؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها صلى الله عليه وسلم .
{ ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ . . . } [الأحزاب : 53] يعني : لا تتهجَّموا عليها؛ لأنها ضيِّقة وليستْ فيها سعة للاستقبال في كل الأوقات ، والإذن هنا مُقيَّد بالطعام { إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ . . . } [الأحزاب : 53] .
وحتى إذا دُعِيتَ إلى طعام رسول الله لا تذهبْ إليه قبل وقته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة؛ لأنه لا يليق أن تشغل رسول الله وله في بيته مهمات يجب ألاّ ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : { غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ . . . } [الأحزاب : 53] أي : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إِنَيَ) على وزن رضا ، وفي لغة : إني أني مثل : رمي رمياً .
وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام { وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فادخلوا . . . } [الأحزاب : 53] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ { فَإِذَا طَعِمْتُمْ فانتشروا . . . } [الأحزاب : 53] فكما نهاهم في أوَّليّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم في آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغي عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشيء حيّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسلْها؟ لماذا؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه في حيّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكي يجفَّ ، إذن : في الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل ، لكن إنْ سكبْتَه في أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا { فادخلوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فانتشروا . . . } [الأحزاب : 53] أي تفرَّقوا؛ لأن المكان الذي أنتم فيه في بيت النبي ضيّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه؟ أنْ يسعى في مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى في سورة الجمعة :

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . . } [الجمعة : 10] .

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعي وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتهم طعامكم؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) في بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عَيِشَة الكفاف في كل شئون حياته؟

ومن معاني الانتشار : السياحة ، وهي مأخوذة من سَاح الماء إذا فَاض ، وأخذ حيّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغي أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك في انتشاركم في الأرض للسعي في طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس في مكان أو زحام ، في حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة في الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده مِنَّا لغايتين :

الأولى : الضرب في الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله . . . } [المزمل : 20] .

والضرب في الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت في أنحاء الأرض بالتساوي ، ونثر فيها الخيرات؛ لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نِعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمَتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة في أرض الله ، وكل أثر كنزيّ في الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب في الأرض ، وسبق أن قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنا نتعجَّب من الناس الذين يسكنون البوادي والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون في هذا

الجَدْب والقَحْط؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجني خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولي في البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السياحة للاعتبار والتأمل في آيات الله في كونه ، فبالتنقل والسير في الأرض أرى آيات ليست موجودة في بيئتي ، وفي ذلك يقول تعالى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [العنكبوت : 20] ويقول سبحانه في موضع آخر : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . } [الأنعام : 11] .

والمعنى أن السَّيْر في الأرض لابتغاء الرزق ينبغي أنْ يصاحبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه : { وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلكم كَانَ يُؤْذِي النبي فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ والله لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحق . . . } [الأحزاب : 53] أي : لا ينبغي أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث ، وتجعلوها (سهراية) في بيت رسول الله ، وهذا النهي كان له سبب وحادثة وقعتْ ، فنزلت هذه الآية .

سيدنا رسول الله لم يُؤلِم وليمة في عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش ، فذبح صلى الله عليه وسلم شاة ، وأعدَّ لهم الحَيْس ، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن ، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقُمْ منهم أحد ، وحياؤه صلى الله عليه وسلم يمنعه أنْ يقول لهم : قوموا ، فأراد صلى الله عليه وسلم أنْ يُظهِر لهم أنه يريد أنْ يقوم ، وقام فعلاً وخرج ، فلم يقُم منهم أحد ووجدَ صلى الله عليه وسلم آخرين جالسين بالخارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا .

يقول سيدنا أنس : فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا ، فجاء صلى الله عليه وسلم ودخل ، فذهبت لأدخل وراءه ، فألقى الحجاب بيني وبينه – يعني : لا أحد يدخل حتى أنت .

ومعنى : { إِنَّ ذلكم كَانَ يُؤْذِي النبي فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ . . . } [الأحزاب : 53] لأنه صلى الله عليه وسلم يريد أنْ تنصرفوا ، لكن يمنعه حياؤه ، وهذا لأن المكان ضيِّق ، ورسول الله في يوم عُرْس ، وليس من المناسب الجلوس عنده .

{ والله لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحق . . . } [الأحزاب : 53] لذلك قالوا : حَسْب الثقلاء أن الله لم يحتملهم . هكذا حدثتنا الآية في صدرها عن : آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدَّثنا بعد ذلك عن الآداب التي يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون في علاقتهم بزوجاته صلى الله عليه وسلم : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فاسألوهن مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 53] .

المتاع : أواني البيت التي لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون في الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون . . إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه : { أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين * فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم * وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الذين هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الماعون } [الماعون : 1-7] .

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التي يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها في بيته .

إذن : الحق سبحانه في حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله في الدخول عليه أو الأكل في بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده صلى الله عليه وسلم من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسْأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبي فاطلبوه من وراء حجاب { ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .

. . } [الأحزاب : 53] .

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التي تستقرُّ في النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وأما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها في البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا في الإدراك ، ولا في الوجدان ، إنما يتدخل في النزوع ، فَلَك أنْ ترى جمال الودرة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أَهِي حَقٌّ لك؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهي مُحرَّمة عليك لأنها ليَستْ مِلْكك ، وليس في هذا حَجْراً على حريتك؛ لأن الذي قيَّد حريتك في الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين في الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك إذن : فالشرع في صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا في علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ،

فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع في هذه الحالة؟ والنزوع في هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد في أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع في هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع في المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج في الرجل معاني خاصة .

وفي ذلك يقول الشاعر :

سُبْحانَ مَنْ خَلَق الجَماَ ... لَ والانْهِزَام لِسَطْوتِهِ

وَلَذَاكَ يأمْرنَا بغَضِّ الطَّرْف عنه لَرحمتِهِ ... من شاء يطْلبه فلا ... إلاّ بطُهْر شريعتِه

وبذَا يدُوم له التمتُّع ... هَأهُنَا وبجنَّتِهِ

أما الذي يدَّعي أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغني بجمالها عن جمال في سواها؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التي تعجبك فسوف تجد في غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل في هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا في المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله . . . } [الأحزاب : 53] أي بالنظر إلى زوجاته؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد في نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدِم؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : { وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ .

. . } [الأحزاب : 53] .

ورُوِي أن رجلاص رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمعنى { ذلكم . . . } [الأحزاب : 53] أي : أمرنا بأنْ تسألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احتياط للطرفين { أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 53] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقوله تعالى : { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله } [الأحزاب : 53] أي : لا ينبغي ولا

يكون ، وهذا يعني أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً؛ لأنه في حق مَنْ؟ في حق رسول الله .

وقوله : { وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً . . . } [الأحزاب : 53] هذا تكريم لرسول الله ولأزواجه ليس في مدة حياته فحَسْب ، إنما حتى بعد مماته؛ لأنَّهُنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصية ، فعادةً في طبيعة التكوين الإنساني ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته . . إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهي في حوزته ومِلْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هي المتاع الوحيد الذي يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعِفَّة ونقاء ، فوضع في قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

لذلك ، تأمل هذا الوصف الذي وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم في أملاكهم وفي بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان في مكين .

فقال سبحانه : { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان . . . } [الحشر : 9] فكأنهم يسكنون في الإيمان { مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . } [الحشر : 9] .

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شيء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هي المسألة التي تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغي على كل ما عداه ، وصار أحبَّ شيء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .

وقوله تعالى : { إِنَّ ذلكم . . . } [الأحزاب : 53] أي : ما سبق أنْ ذُكِر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألاَّ تؤذوا رسول الله ، أو تنكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا { كَانَ عِندَ الله عَظِيماً } [الأحزاب : 53] وكيف يُؤْذَي رسولُ الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء في الدنيا في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ . . . } .

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54)

فكأن في الآية إشارة تحذير : إياكم أنْ تسرقكم خواطركم في هذه المسألة؛ لأن ربكم لا تخفي عليه خافية ، ولا يعزُبُ عن علمه شيء ، وإنْ كانت الخواطر والهواجس لا يُحاسب عليها المرء ، إلا أنها محظورة منهي عنها ، إنْ كانت في حَقِّ رسول الله .

لقد ورد في الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة » هذا في الأمور العامة ، أما إنْ تعلَّق الأمر برسول الله فلا؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التي فلا؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التي أُرسِل بها ، وألاَّ يشغله عنها شاغل ، وأيُّ مهمة أعظم من مهمة هداية العالم كله ، ليس في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى : { إِن تُبْدُواْ شَيْئاً . . . } [الأحزاب : 54] أي : أيّ شيء مهما كان { أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحزاب : 54] وعليم صيغة مبالغة في العلم؛ لأن عِلْم الله تعالى عِلْم أزليٌّ ليس مُتجدِّداً بتجدُّد الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده .

لذلك قلنا : إن الزمن عندنا نحن ماض وحاضر ومستقبل ، أما بالنسبة للحق سبحانه فليس هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل؛ لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض .

واقرأ مثلاً : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] وأتى فعل ماض ومع ذلك قال بعده { فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] والاستعجال لا يكون إلا لشيء لم يَأْتِ وقته ، فكأن (أتى) معناها بالنسبة لكم سيأتي ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل؛ لأن الزمن كله في علم الله سواء .

ومعنى : { فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحزاب : 54] أي : كان وما يزال عليماً؛ لأنه سبحانه ما دام كان عليماً ، وهو سبحانه لا تتأتى فيه الأغيار ، فهو سبحانه عليم فيما مضى ولا يزال؛ لأنه لا يتغير ، فكان هنا لا تعني أن علمه تعالى نتيجة لحدثكم الذي أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أنْ يحدث منكم .

وهذه الآية من الآيات التي وقف عندها المستشرقون؛ ليستدركوا كما يظنون على كلام الله؛ لأنهم دائماً يتهموننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسة ، وأنه كلام الله فلا نُعمل فيه عقولنا ، وأنهم حين يُدقِّقون في القرآن ويتجرَّأون على البحث فيه يجدون فيه مآخذ – على حَدِّ زعمهم .

ووَجْه اعتراضهم في قوله تعالى : { إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحزاب : 54] ومثله : { والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [النور : 29] .

يقولون : إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخفي ، فما الميزة وما العظمة في علم ما نبدي؟

نقول : إياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحكِّم فيه عقلك قبل أنْ تؤمن أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أَدِرْ المسألة في عقلك وابحثها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز فيها .

فقوله تعالى { إِن تُبْدُواْ . . . . } [الأحزاب : 54] الله لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جمهرة الناس ، والإبداء من الجمهرة لا يمكن لك أن تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلَّ صوت ، وكلَّ حركة إلى صاحبها .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التي تختلط فيها الأصوات وتعلوا الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادي بسقوط فلان ، أنستطيع في هذه الحالة أنْ نحدد صاحب هذا الهتاف؟ لا لا نستطيع بسبب اختلاط وتداخل الأصوات ، مع أنه جَهْر أعلنه صاحبه بأعلى صوته أبداه على الملأ ، ومع ذلك لا تستطيع أنت تحديده .

أما الحق سبحانه ، فيعلم الصوت ، ويعلم صاحبه ، ويعلم أثره ونتيجته ، ويريد كل كلمة ، بل وكل نَفَس إلى صاحبه ، فالذين يحاولون التستُّر والاستخفاء في جمهرة الناس عليهم أنْ يحذروا إنْ شوَّشوا على الخَلْق ، واستْخفوا منهم ، فلن يستخفوا من الله ، فالله لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلط عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه : { لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ في آبَآئِهِنَّ . . . } .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)

بعد أنْ نزلت آية الحجاب : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فاسألوهن مِن وَرَآءِ حِجَابٍ . . . } [الأحزاب : 53] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا : حتى نحن يا رسول الله؟ فأنزل الله هذه الآية . { لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ في آبَآئِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 55] .

ومعنى { لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ . . . } [الأحزاب : 55] أي : لا حرجَ ولا إثْمَ أنْ يدخل عليهن هؤلاء المذكورون؛ لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يُخْشَى من دخولهم عليها ، وهم : الأب ، والابن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت .

والكلام في { وَلاَ نِسَآئِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 55] وهي مضاف ومضاف إليه ، والإضافة في اللغة تأتي بمعانٍ ثلاثة : بمعنى (مِنْ) مثل أردب شعير يعني : من شعير ، وبمعنى (في) مثل (مكر الليل) أي : في الليل ، وتأتي بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعني لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص ، فمعنى مال زيد يعني : مِلْك لزيد ، وتقول : لجام الفرس ، فاللجام ليس مِلْكاً للفرس ، إنما يختص به .

فهنا كلمة { نِسَآئِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 55] تأتي بمعنى (من) وبمعنى اللام أي : نساء لَهُنَّ ، أو نساء منهن ، ولا تأتي هنا بمعنى (في) إذن : فالمراد نساء منهن يعني : من قرابتهن أو نسائهن يعني : التابعين لهن مثل الخدم شريطة أنْ يكُنَّ مؤمنات؛ لأن المؤمنة هي المؤتمنة على المؤمنة ، أما الكتابية أو الكافرة فلا يصح أنْ تقوم على خدمة المؤمنة؛ لأنها ربما تَصِفُها لقومها .

لذلك نلحظ دقة التعبير هنا في عدم ذِكْر الأعمام والأخوال؛ لأن العم أو الخال – رغم أنه في منزلة الوالد – إلا أنه قد يصف البنت لابنه ، فإنْ كان العم أو الخال ليس له ولد ، فالعلة مفقودة ، ويجوز التساهل معهما – إذن – في الدخول في المرأة ، وإبداء الزينة أمامهما .

وقوله تعالى : { وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 55] قلنا : إن مِلْك اليمين يأتي من الأسرى في حرب مشروعة ، وقد باشرتَ أَسْره بنفسك ، بمعنى أنه لم يكُنْ حراً ، ثم أُخذ وبيع على أنه عبد ، ثم بعد الأَسْر يمكن أن تأخذ مِلْك اليمين بأنْ تشتريه ، أو تأخذه إرثاً ، أو تأخذه هِبة ، ومِلْك اليَمين قد يكون من النساء فتدخل في نسائهن ، أو يكون من الصبيَان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

كما قال سبحانه في موضع آخر : { أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . . } [النور : 31] .

ويدخل في ذلك أيضاً التابعون الذين يعملون في البيت كالبوابين والسائقين والطباخين . . إلخ ، والشرع يتساهل مع هؤلاء؛ لأن العرف الاجتماعي يأبى أنْ تنشأ علاقة بين هؤلاء وبين أهل البيت ، فهؤلاء التابعون يعملون في البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرّأ على أنْ ينظر إلى سيدته؛ ذلك لأن المركز الاجتماعي جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه : { واتقين الله . . . } [الأحزاب : 55] كأن الحق سبحانه يقول : لقد بينتُ لكُنَّ الحكم في الدخول على المرأة ، وبينت الأنواع التي لا جناحَ عليكُنَّ في دخولهم ، والحارس عليكُنَّ في هذا تقواكُنَّ لله ، فتقوى الله هي التي تحملك على طاعته ، وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفي بعد الأمر بالتقوى أنْ تعلم { إِنَّ الله كَانَ . . . } [الأحزاب : 55] وما يزال { على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً } [الأحزاب : 55] .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله وملائكته يُصَلُّونَ . . . } .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)

جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالخير لأمته مُبشّراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

كان صلى الله عليه وسلم يألم ويحزن إنْ تفلَّتَ أحدٌ من يده ، وخرج عن ساحة الإيمان ، وكان يُكلِّف نفسه في أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وفوق ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] .

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يُطلَب منه إلا البلاغ فحسَبْ ، أما الهداية فمن الله عز وجل؛ لأنه تعالى قال : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء :

. [4

فلشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية قومه عاتبه ربه؛ لأنه شَقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا لصالحه صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في قوله تعالى : { يأيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ . . . } [التحريم : 1] .

وهذا العتاب أشبه بعتابك لولدك الذي أرهق نفسه في المذاكرة ، حتى أنك أشفقتَ عليه ، فأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة في عمل لا تطيقه قوته .

وقد ظهرت قمة حرْصه صلى الله عليه وسلم على أمته حين أنزل الله عليه : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 1-5] .

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إذن : لا أرضى وواحد من أمتي في النار » .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أنْ تُصلُّوا عليه؛ لأن كل خير يناله يعُمُّ عليكم ، ويعود إليكم؛ لذلك قال سبحانه : { إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي يأيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب : 56] .

وتلحظ أن الخبر { يُصَلُّونَ . . . } [الأحزاب : 56] خبر عن الله والملائكة؛ فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، والنبي صلى الله عليه وسلم مرة خطيباً يخطب ، يقول : مَنْ يتَّقِ الله ورسوله يُثبْه الله ، ومَنْ يعصهما يعاقبه الله ، فقال صلى الله عليه وسلم له : « بِئْسَ خطيب القوم أنت » لماذا؟

قالوا : لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله في : (ومن يعصهما) ، وكان عليه أنْ يقول : ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله ، فالله وحده هو الذي يجمع معه سبحانه مَنْ يشاء . قال سبحانه : { وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ . . . } [التوبة : 74] .

أما نحن ، فليس لنا أبداً أنْ نأتي بصيغة تشريكية بين الله تعالى وأحد من خَلْقه .

وقوله تعالى : { إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي . . . } [الأحزاب : 56] هكذا قال الله ، وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خَلْقه ، وأنت لا يجوز لك أنْ تجمعَ هذا الجمع إلا إذا كنتَ تقرأه على أنه قرأن ، فإن أردتَ أنْ تنشيء كلاماً من عندك فلا بُدَّ أن تقول : الله يُصلِّي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي .

لذلك احتاط علماء التفسير لهذه المسألة فقالوا أن (يصلون) ليست خبراً للكل ، إنما تقدير الخبر أن الله يصلي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي .

وإذا كان الله يُصلِّي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي ، فماذا عنكم أنتم؟ يجب أنْ تُصلوا

أنتم كذلك على النبي { ياأيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب : 56] .
سبق أنْ بيّنا أن الصلاة من الله لها معنى ، ومن الملائكة لها معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكُلٌّ بحَسْبه ، والصلاة في الأصل هي الدعاء ، والدعاء يقتضي داعياً ومدعواً له ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أنْ يغفر لفلان ، فأنا الداعي ، والله تعالى مدعو ، وفلان مدعو له ، فإذا كان المصلي والداعي هو الله عز وجل ، فمَنْ يدعو؟ إذن : معنى الدعاء لا يأتي مع الله تعالى .
لذلك قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا قال لك أَعِدُك أنْ أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وَعْد منه ، لا يملك هو من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إنْ قال لك : أدعو الله أنْ يعطيك كذا وكذا ، ونسب العطاء لله تعالى ، فهذا أَرْجَى للتحقيق؛ لأنه منسوب إلى الله ، فإنْ قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإنْ كان الله تعالى هو الذي يأمر لك بهذا العطاء فلا بُدَّ أنْ تناله لا محالة .
إذن : الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هي تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة ، ويكفي من رحمته تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنْ جعله خاتم الرسل ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه؛ لذلك خاطبه بقوله : { وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح : 4] .
يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لأمته فحسب ، إنما للخَلْق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخِّصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم في { ياأيها النبي . . . } [الممتحنة : 12] و { ياأيها الرسول . . . } [المائدة : 41] .
أما عن صلاة الملائكة ، فهي دعاء ، واقرأ : { الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم * وَقِهِمُ السيئات وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم } [غافر : 7-9] .
فإذا كان الخَلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم ، حتى الذين أذنبوا منهم ، ثم تابوا ، فما بالك برسول الله ، وهو هادي الناس جميعاً .

أما الصلاة من المؤمنين ، فهي الاستغفار ، واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم ، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً فَهُمْ إنِ استغفروا ، فاستغفار عن الغفلة عنه صلى الله عليه وسلم ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه ، فيصلون عليه .
والمؤمن حين يُصلِّي على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله؟ ماذا بأيدينا؟ لذلك

تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلي ، ولكن تقول : اللهم صَلِّ على محمد ، أو صلَّى الله على محمد ، فتطلب مِمَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلي على رسول الله؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله .

إذن : فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من الملائكة الدعاء ، والصلاة من المؤمنين الاستغفار .

لذلك « سُئِلَ سيدنا رسول الله : يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك صلاة الملائكة ، فما الصلاةُ عليك؟ يعني كيف؟ قال صلى الله عليه وسلم : » قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العاملين ، إنك حميدٌ مجيدٌ « » .

ودخل عليه صحابي ، فقال : يا رسول الله ، ما رأيتك بهذه الطلاقة والبِشْر قبل اليوم؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن جبريل جاءني فأخبرني أن مَنْ صلى عليَّ صلاة صلَّى الله بها عليه عشراً ، وكُتِب له عشر حسنات ومُحي عنه عَشْر سيئات » .

وقال عمر رضي الله عنه : دخل رجل على رسول الله ، فسأله : ما الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ذلك من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتموني ما قلته : إن الله وكَّل بي ملكيْنِ ، فإذا صلَّى واحد عليَّ قال الملكان : غفر الله لك . ويقول الله : آمين وتقول الملائكة : أمين » .

سبحان الله : الله عز وجل بذاته يُؤمِّن على دعاء الملكين .

وقالوا : الصلاة على رسول الله فَرْض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة من العمر ، لكنها واجبة عليه عند كل ذِكْر لرسول الله ، لذلك جاء في الحديث : « أبخل البخلاء من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ » .

وقوله تعالى بعدها : { وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب : 56] لك أنْ تلحظ في صدر الآية { إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي . . . } [الأحزاب : 56] ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون ، فلما أمر المؤمنين قال { صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب : 56] فزاد : وسلِّموا تسليماً .

قال العلماء : لأن الصلاة على رسول الله لا يزن إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره ، وأن تُسْلِم زمامك له في كل صغيرة وكبيرة ، وإلاَّ فكيف تُصلِّي عليه وأنت تعصي أوامره ، وقد قال تعالى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [النساء : 65] .

ومن معاني التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبي كما نقول في التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أي : جعل الله لك وقاية ، فلا ينالك أحد بسوء

.

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين يُؤْذُونَ . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57)

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذي للمؤذَي ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَي بالفعل؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذي لا يليق به سبحانه ، كقولهم : { إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ . . . } [آل عمران : 181] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : { يَدُ الله مَغْلُولَةٌ . . . } [المائدة : 64] .

وقولهم : { عُزَيْرٌ ابن الله . . . } [التوبة : 30] .

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول في الحديث القدسي : « يؤذيني عبدي ، وما كان له أنْ يؤذيني ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أُقلِّبُ الليل والنهار » .

وهل الزمن له ذَنْب في الأحداث التي تؤلمك؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : { مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . . } [الجاثية : 24] .

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغي أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَي منها ، وفي هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسْلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها . . فهذه الأقوال منهم في الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف؟

الحق – سبحانه وتعالى – حينما استخلف الإنسان في الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ في كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان } [الرحمن : 1–4] .

فقانون الصيانة في القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله في أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سويَّ التكوين في كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء

» أو قالوا : الملائكة بنات الله . . إلخ هذه الأقوال التي ترتب عليها غضب الحق سبحانه؛ لأنه خليفته في الأرض لم يُؤَدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة الحق سبحانه ، بل أنتم في قبضته ، وتحت مشيئته ، ولو شاء سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خلقكم على هيئة الصلاح لا تأتي منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به ، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيئتين . هيئة لكم فيها اختيار وهي التكاليف ، وهيئة مقبوضين في قبضة الحق سبحانه وهي القضاء ، فما دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً؟

ومع ذلك ما دُمْتَ قد اخترْتَ الكفر وأنا رَب ، ومطلوب مني أنْ أعينك على ما تحب ، فسوف أختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذي تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بي لا يضرني ولا يؤذيني .

وقد ورد في الحديث القدسي : (يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضُرِّي فتضروني) .

وإنْ كانت لكم منطقة اختيار في الدنيا هي أمور التكاليف ، فسيأتي يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد في شيء يوم يقول الحق سبحانه { لِّمَنِ الملك اليوم . . . } [غافر : 16] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : { لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

هذا في معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء في حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذي أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَمِيتْ قدماه في الطائف؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير في مكة – أي سَقَط البعير – ألم تكسَر رباعيته يوم أحد ويُشَجُّ ويسيل دمه صلى الله عليه وسلم ؟

فرسول الله ناله مع ربه – عز وجل – إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشرى فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه صلى الله عليه وسلم .

لذلك قال تعالى : { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله . . . } [الأحزاب : 53] أي : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسي ، ثم لم يخص من ألوان الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : { وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً . . . } [

الأحزاب : 53] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغَارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكوني معي في الجنة؟

فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجي بعدي – فهو يغار عليها حتى بعد موته – لأني سمعت رسول الله يقول :

« المرأة لآخر أزواجها » .

لكن هذا الحديث وُوجه بحديث آخر « لما سُئِل رسول الله : أيُّ نساء الرجل تكون معه في الجنة؟ فقال : » أحسنهن خلُقاً معه « » .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعت برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها في المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارض بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور في تاريخنا وأدبنا العربي ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حيَيتُ فإن أَمُتْ ... فوَا أسَفَي مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدي

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله في هيامه بمحبوبته؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر :

أَهِيمُ بدَعْدٍ مَا حَييتُ فإن أَمُتْ ... فَلاَ صَلُحَتْ دَعْدٌ لذِي خُلَّةٍ بَعْدي

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين – أظنه الهادي – كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفي خلوة من خلوات الهيام والعِشْق قال لها : عاهديني – لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام – إذا أنا مِتُّ أن لا تتزوجي بعدي ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادي لم تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادي ، ونسيتْ حُزْنها عليه – وهذا من رحمة الله بنا أن كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخي الهادي ، وفي يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ في القصر ، وسألوها : ماذا بك؟ قالت : جاءني الهادي في المنام ، وقال لي :

خَالَفْتِ عَهْدِي بَعْدَمَا ... جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابرْ

ونكحْتِ غادرةً أخِي ... صَدَق الذِي سَمَّاكِ غَادِرْ

لا يَهْنك الإلْفُ الجديدُ ... ولا عَدتْ عَنْك الدَّوائرْ
وَلَحَقتِ بي مُنْذُ الصَّباح ... وصِرْتِ حَيْثُ ذهَبْتُ صائِر

وما كادت تنتهي من قولها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ، وماتت لذلك ، فالحق سبحانه يراعي هذه الغرائز الإنسانية وهذه الطبيعة ، أَلا ترى أن عِدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سَنةً كاملة ، كما في قوله تعالى : { والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الحول غَيْرَ إِخْرَاجٍ . . . } [البقرة : 240] .

ثم جُعلَتْ عِدَّة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغريزة في المرأة .

ثم يُبيّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذي الله ويؤذي رسول الله ، فيقول سبحانه : { لَعَنَهُمُ الله . . . } [الأحزاب : 57] أي : طردهم من رحمته { فِي الدنيا والآخرة وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } [الأحزاب : 57] .

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارةً إلى أن هذا الجزاء العادل الذي أعدَّه لمن يؤذي الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الذي يؤذي مؤمناً أو مؤمنة لا بُدَّ أن يُجازَي عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المؤمن والمؤمنة في إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه : { والذين يُؤْذُونَ . . . } .

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله { بِغَيْرِ مَا اكتسبوا . . } [الأحزاب : 58] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر . . إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما في إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى في اللذين يأتيان الفاحشة : { واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا . . . } [النساء : 16] .

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية : { والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمنات . . . } [الأحزاب : 58] بكي فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال : لأنني آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذي لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرحم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه في الحدود : { وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله . . . } [النور : 2] .

لأن الرأفة في حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من الخالق سبحانه ، والله تعالى حين

يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ يجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ . . . } [البقرة : 179] .

كيف تكون الحياة في القتل؟ نعم ، في القصاص حياة؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً؟

ومعنى { بِغَيْرِ مَا اكتسبوا . . . } [الأحزاب : 58] أي : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة { اكتسبوا . . . } [الأحزاب : 58] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أي الفعل الطبيعي الذي ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففِعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ في الشيء فوق ما أعطيت ، كما لو اشتريت بخمسة وبِعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد في العُرْف اللغوي العام أن كسب تأتي في الخير واكتسب تأتي في الشر ، مثل قوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . } [البقرة : 286] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتي طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة في الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فِعْلتِك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفي آية واحدة في كتاب الله جاء الفعل كسب في الشر ، وذلك في قوله تعالى : { بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار . . . }

[البقرة : 81] .

فلماذا؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجاهر الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتي مُعَافَى إلا المجَاهرين » وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذي يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله في الحرام ، كأنها الحلال بعينه؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت مَلكةً .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال في الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود في جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه في السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه؟ لطخ

أحدهم كتفه بروَث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسي مسألة النقود التي في جيبه فسرقوه .

وكما يأتي الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال ومبالغة تناسب افتعال الفعل؛ لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : { فَقَدِ احتملوا . . . } [الأحزاب : 58] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال لما في طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعني فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ في المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

{ فَقَدِ احتملوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً } [الأحزاب : 58] البهتان : أن تقول في غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً في حقه بأن تؤذيه بصفة هي فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفِه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد في الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهته » أي : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين { وَإِثْماً مُّبِيناً } [الأحزاب : 58] يعني : جَليٌّ واضح؛ لأن الوضوح في الإثم إما أن يكون بأنْ تُقِر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلت لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفي إقرارك به .

وينبغي أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنَا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه : { ياأيها النبي . . . . } .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)

نلحظ أن الأمر توجَّجه أولاً لأزواج النبي ، ثم لبناته صلى الله عليه وسلم ، وهذا يعني أن رسول الله لا يأمر أمته بشيء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشيء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسي فلم أتميز عنكم بشيء .

لذلك جاء في سيرة القائد المسلم « طارق بن زياد » أنه لما ذهب لفتح الأندلس وقف بجنوده على شاطيء البحر ، وأعداؤه على الشاطيء الآخر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإنني عند ملتقى القوم سابقكم ، فمبارز سيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم

أمره ، وإنْ قتلني فلن يعوزكم أمير بعدي .
أي : أنني سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعني : أنا لا أتميز عنكم بشيء .
وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر – رضي الله عنه – القوم وقاد العالم وهو يرتدي مُرقَّعته بالمدينة؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلْتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .
وكان – رضي الله عنه – إذا أراد أنْ يأخذ قراراً في أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتي أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التي تحيط به؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ صدر قراراً في كذا وكذا ، فوالذي نفسي بيده مَنْ خالفني منكم إلى شيء منه لجعلته نكالاً للمسملين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعي صلته بي ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفني ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .
وورود النص القرآني بلفظ { ياأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ . . . } [الأحزاب : 59] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النص الذي جاءه ، والصيغة التي تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبي أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآني كما أُنزل عليه؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .
وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله ، كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخي موسى – عليهما السلام – هي السيدة صفية بنت حيي بن أخطب .
أما بنات رسول الله ، فرسول الله أنجب البنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً في الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغرهن فاطمة ، وهي الوحيدة التي بقيتْ بعد موت سيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ في حياة رسول الله .
ولفاطمة قصة في الضحك والبكاء؛ لذلك بعض العارفين كان يقول في قوله تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبزى } [النجم : 43] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذي أبكاكِ وما الذي أضحكك؟ قالت : لأنني لما دخلتُ على أبي وهو مريض قال لي : إن هذا هو مرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصرفت فأشار إليَّ وقال لي : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي

فضحكت . لذلك لم تمكث فاطمة بعد رسول الله إلا ستة أشهر .
وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أن لقاء الأموات يكون بمجرد الموت ، وإلا لو كان اللقاء في البعث والقيامة لاستوى في ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مات آخراً ، فدلَّ قوله : « ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي » على أن لقاءه صلى الله عليه وسلم بها سيكون بمجرد أنْ تموت .
الشاهد في هذه القصة أن أحدهم – أظنه الإمام علياً – قال لفاطمة : الله يقول { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى } [النجم : 43] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .
أما السيدة زينب فتزوجت العاص بن الربيع قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسِر العاص في غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمت قلادة كانَت معها ، فلام رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة – رضي الله عنها – قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ صلى الله عليه وسلم الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة .
أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبي لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبني أبي لهب وأنزل الله تعالى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } [المسد : 1–2] .
قال لابنه عتبة : رأسي ورأسك عليَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مَرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « أكلك كلب من كلاب الله » .
أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يرَدُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصي به رفاقه في رحلات تجارته – وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة في رحلات التجارة ينام في وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفي إحدى الليالي جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .
علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسِب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل : كلب من كلابكم ، إنما من كلاب الله .
هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحي أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج في حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم؛ لذلك لُقِّب – رضي الله عنه – بذي النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَن مَا رأى إنْسَانٌ ... رُقيَّة وزوجُها عُثْمَانُ

فانظر إلى عِظَم هذا العوض أنْ يُبدِلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ؟ عثمان ، نعم العِوَض هذا ، والعِوَض في مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء في نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أَجْرني في مصيبتي – أيّاً كانت هذه المصيبة – وأخْلُفْنِي خَيْراً منها » .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة في كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة في هذا المقام ، فلما توفي زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها في زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولي كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أأجرني في مصيبتي ، واخْلُفْني خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبي سلمة ، يعني : هو في نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عِدَّتها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبي سلمة .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبي وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال { يأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذلك أدنى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الأحزاب : 59] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واسْتُثْقِل جمع امرأة على امرآت فقالوا : نساء وأصلها في اللغة من النسيء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل .

وفي اللغة : النَّسْء أي : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذي وُجِّه إلى زوجات النبي ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 59] فالفعل { يُدْنِينَ . . . } [الأحزاب : 59] مجزوم في جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسْلَم ، ذاكر تنجح ، وفي الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما في { وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . } [الحج : 27] لأن الخطاب هنا

للمؤمنات ، وعلى رَأْسِهن أزواج النبي وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهِنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى في وصف ثمار الجنة { قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ } [الحاقة : 23] أي : قريبة التناول سَهْلة الجَنْي ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أي : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : { عَلَيْهِنَّ . . . } [الأحزاب : 59] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة { جَلاَبِيبِهِنَّ . . . } [الأحزاب : 59] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا : هو الثوب الذي يُلْبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذي يغطي الرأس ، ويُضرب على الجيوب – أي فتحة الرقبة – لكن هذا غير كافٍ ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفِتاً للنظر؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لا يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدوا وكأنها عارية .

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوْل أحدهم – وهو على حق – إنَّ مبالغة المرأة في تبرُّجها إلحاح منها في عَرْض نفسها على الرجل . يعني : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج ، ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التي تزوجت؟

ثم يُبيِّن الحق – تبارك وتعالى – الحكمة من هذا الأدب في مسألة اللباس ، فيقول : { ذلك . . . } [الأحزاب : 59] أي : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وسَتر الجسم ، وعدم إبداء الزينة { أدنى . . . } [الأحزاب : 59] أي : أقرب { أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ . . . } [الأحزاب : 59] .

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذي ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفي ختام الآية { وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الأحزاب : 59] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعي ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمّن حياة المرأة المسلمة ، كيف؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام في هذه الحالة يحمي المرأة ويحفظ لها عِزَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ المنافقون . . . } .

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61)

المتتبع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واجهوا في نشر رسالتهم ثلاثة أصناف من البشر : صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف متردداً بين الكفر والإيمان ، وهؤلاء هم المنافقون .

ذلك؛ لأن الرسول حين يُبعث إنما يُبعَث لتغيير وضع اجتماعي بلغ من السوء درجةً لا يحتملها الناس ، فالذي يعاني من هذا الوضع ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أنْ يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به؛ لأنه جاء بمباديء جديدة ، لا ظُلْم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ، ولا رشوة ، ولا فساد .

إذن : مَنْ عضته هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سارع إلى الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إنْ دخلها الإسلام حتى أسرعوا إليه ، لماذا؟ لأنهم شَقُوا قبله بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفُرْس بمجرد أنْ سمعوا بالإسلام ، ورأوا الأسوة الحسنة في المسلمين بعد أنْ عَضَّهم فساد غير المسلمين .

ساعة يشْقَى الناسُ بفساد الأوضاع يتطلَّعون إلى منقذ ، فإنْ جاءهم اتبعو ، خاصة إنْ كان منهم وله فيهم مَاضٍ مُشرّف لم يُجربوا عليه كذباً ولا نقيصة .

وهذا ما رأيناه مثلاً في قصة إسلام سيدنا أبي بكر ، فما أنْ أعلن محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أنْ يسأله عن شيء ، لماذا؟ لأنه عرف صِدْقه ، وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة – رضي الله عنها – فما إنْ جاءها رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول المَلَك عليه حتى احتضنته ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأنصفته ، وذهبتْ به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلمه ولن يتخلى عنه .

وكان مما قالتْ : « والله إنك لتقري الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر . . . » .

لذلك قال العلماء : إن السيدة خديجة كانت أول فقيهة في الإسلام قبل أنْ ينزل الإسلام .

وطبيعي أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على النقيض ، فهم ينتفعون بالفساد والاستبداد ، ويريدون أن تظلَّ لهم سيادتهم ومكانتهم ، وأنْ يظل الناسُ عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم .

وهؤلاء الذين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادةً بل آلهة ، ويعلمون أن الرسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم الكاذبة ، هؤلاء لا بُدَّ أن يصادموا الدعوة ، لا بُدَّ أنْ يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حِفَاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية .

وعجيب أن نرى من عامة الناس مَنْ أَلِف هذه العبودية ، ورضي هذه المذلة ، واكتفى بأنْ يعيش في كَنَف هؤلاء السادة مهما كانت التبعاتُ ، هؤلاء وأمثالهم هم الذين كقالوا : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

فبعد أنْ جاءهم الرسول المنقذ ما زالوا يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم .

وكلٌّ من هذيْن الفريقين (المؤمن ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، ونطلق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد ، والإنسان قلبٌ وقالبٌ ، ولا بُدَّ في الإيمان أنْ يوافق القالبُ ما في القلب .

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبان يُظهر لك الحب ، ويُضمِر الكره؛ لذلك جعلهم الله في الدَّرْك الأسفل من النار .

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، ليبطل بها سيادة زعماء الكفر أبوْا أن يقولوها ، لماذا؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، ويترتب عليها مسئوليات لا يقدرون هم على القيام بها ، ولو أنها كلمة تُقَال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا عبودية إلا لله ، ولا خضوعَ إلا لله ، ولا تشريعَ إلا لله ، ولا نافع إلا الله . . . إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعاني مع مَنْ أَلِف العبودية والخضوع لغير الله؟

والحق – تبارك وتعالى – لما تكلّم هنا عن المنافقين خَصَّ المدينة ، فقال سبحانه { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ والمرجفون فِي المدينة . . . } [الأحزاب : 60] فالنفاق لم يظهر في مكة ، وهي مَعْقل الكفر والأصنام ، إنما ظهر في المدينة ، وهي التي آوَتْ مهاجري رسول الله ، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب ، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار ، فلماذا هذه الظاهرة؟

قالوا : إن الإسلام كان ضعيفاً في مكة ، وصار قوياً في المدينة ، فالنفاق ظاهرة صحية للإسلام؛ لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون ، فظهور النفاق في المدينة دليل على قوة الإسلام فيها ، وأنه صارت له شوكة ، وصارت له سطوة؛ لذلك نافق ضعافُ الإيمان؛ ليأخذوا خير الإسلام ،

وليحتموا بحماه ، وإلا فالضعيفُ لا يُنَافَق .

نعم ، ظهر النفاق في المدينة التي قال الله في حق أهلها : { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . } [الحشر : 9] .

ويقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها » .

وأيضاً القرآن هو الذي قال عن أهل المدينة : { وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق . . . } [التوبة : 101] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيثُ أصبحتْ له سطوة وقوة تُنافَق .

هنا قوله تعالى : { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ المنافقون . . . } [الأحزاب : 60] ساعة تسمع { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ . . . } [الأحزاب : 60] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشيء وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسِم إلا على الشيء العظيم ، ونحن البشر نُقسِم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا .

أما الحق سبحانه ، فكلامه صادق ونافذ دون قَسَم ، فما بالُكَ إنْ أقسم؟ لذلك يقول بعض العارفين إذ سمع الله تعالى يُقسِم : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم؟

كلمة { المنافقون .

. . . } [الأحزاب : 60] مفردها منافق ، مأخوذ من نَافَقاء اليربوع ، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش في جحور ، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره ، لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء ، فماذا يفعل؟ يجعل لجُحْره مدخلين ، واحد معروف ، والآخر مستتر بشيء ، فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر؛ لذلك أشبه المنافق تماماً الذي له قلب كافر ولسان مؤمن .

وتلحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث { المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ والمرجفون فِي المدينة . . . } [الأحزاب : 60] فالعطف هنا لا يقتضي المغايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشيء واحد ، وجاءتْ هذه الصفات مستقلةً؛ لأنها أصبحتْ من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً منفرداً بذاته .

وقد وصف القرآن في موضع آخر المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ آمَنَّا بالله وباليوم الآخر وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة : 8-10] .

وفي هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومِثْله العطف في قوله تعالى : { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان . . . } [الحشر : 9] فالدار أي المدينة ، وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً .

ومعنى { والمرجفون . . . } [الأحزاب : 60] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزَّة العنيفة التي تزلزل ، ومنه قوله تعالى : { يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة } [النازعات : 7] فالمرجفون هم الذين يحاولون زلزلة الشيء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأو للإسلام قوةً حاولوا زعزعتها وهزّها لإضعافه والقضاء عليه .

وهؤلاء هم الذين نسميهم في التعبير السياسي الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروِّجون الإشاعات ، ويذيعون الإباطيل التي تُضعِف التيار العام وتهدد استقراره .

وكثيراً ما قعد المنافقون يقولون : إن قبيلة فلان وقبيلة فلان اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته ، وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم .

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يفكر في الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له : ألم تعلم أن فلاناً أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذَّبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ، ذلك ليصرفوا الناس عن دين الله .

إذن : المرجِفُ يعني الذي يمشي بالفتنة والأكاذيب؛ ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يُشيع من بهتان وأباطيل .

لذلك يهددهم الحق سبحانه : لئن لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف في المدينة وتضليل الناس لَيكُونَنَّ لنا معهم شأن آخر ، كان هذا وقت مهادنة ومعاهدة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكأن الله تعالى يقول : لقد سكتنا على جرائمهم إلى أنْ قويَتْ شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإنْ نقضوا عهدهم معنا فسوف نواجههم .

وعجيب من هؤلاء المرجفين أنْ يظنُّوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول : { أَمْ حَسِبَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول والله يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [محمد : 29-30] .

ومعنى لحن القول : أن يميلوا عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم في السلام على رسول الله : السام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (راعنا) فقالوا : راعونا يقصدون الرعونة .

وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8] فهذا القول منهم دليل على غبائهم . أولاً : لأنهم يتمنوْنَ العذاب .

ثانياً : لأنهم قالوا ذلك في أنفسهم لم يقولوا للناس ، ولم يقولوا حتى لبعضهم البعض؛ لأن (يقولون) جمع ، و (في أنفسهم) جمع ، فكأن كلاً منهم كان يقول ذلك في نفسه .

إذن : ألم يسأل واحد منهم نفسه : مَنِ الذي أعلم رسولَ الله بما في نفسي؟ أَلاَ يدل ذلك على أن محمداً موصول بربه ، وأنه لا بُدَّ فاضحهم ، وكاشفٌ مكنونات صدورهم ، إذن : هذا غباء منهم .

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين في المدينة يجد أن الإسلام لم يأخذهم على غرَّة ، إنما أعطاهم العهد وأمنَّهم ووسَّع لهم في المسكن والمعيشة طالما لم يُؤذُوا المسلمين ، لكن بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يتناجوْنَ بالإثم والعدوان ، فبعث إليهم ونهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان ، لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ . . . } [المجادلة : 8] .

إذن : لم يَبْقَ إلا المواجهة على حَدِّ قول الشاعر :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّبَ بَعْدهَا ... وَعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ

لذلك يأتي جواب الشرط : { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ والمرجفون فِي المدينة لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ . . . } [الأحزاب : 60] .

فجواب الشرط : { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ . . . } [الأحزاب : 60] من الإغراء ، وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير ، الإغراء : أنْ تحمل المخاطب وتُحبِّبه في أمر محبوب ليفعله ، كما تقول لولدك مثلاً : الاجتهادَ الاجتهادَ .

أما التحذير فأنْ تُخوِّفه من أمر مكروه ليجتنبه ، كما تقول : الأسدَ الأسدَ ، أو الكسلَ الكسلَ .

فمعنى { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ . . . } [الأحزاب : 60] أي : نُسلِّطك عليهم ، ونُغريك بمواجهتهم والتصدِّي لهم ، فكأن هذه المواجهة صارتْ أمراً محبوباً يُغْري به؛ لأنها ستكون جزاءَ ما فزَّعوك وأقلقوك .

وما دمنا سنسلطك عليهم ، وما دمتم ستصيرون إلى قوة وشوكة تُغري بعدوها ، فلن يستطيعوا البقاء معكم في المدينة .

{ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً } [الأحزاب : 60] أي : في المدينة ، وكلمة { إِلاَّ قَلِيلاً } [الأحزاب : 60] يمكن أنْ يكون المعنى : قليل منهم ، أو قليل من الزمن ريَثْما يجدوا لهم مكاناً آخر ، يرحلون إليه مُشيَّعين بلعنة الله .

{ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثقفوا أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً } [الأحزاب : 61] .

الملعون : المطرود من رحمة الله ، أو مطرودون من المدينة بعد أنْ كشف الله دخائلَ نفوسهم الخبيثة؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد؛ لأنهم كانوا من خُبْثهم ولُؤْمهم يدخلون المسجد ،

بل ويُصلُّون في الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم .
لكن رسول الله كان يطردهم بالاسم : يا فلان ، يا فلان ، فكان صلى الله عليه وسلم يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له : { وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ . . . } [محمد : 30] .
ومعنى { أَيْنَمَا ثقفوا . . } [الأحزاب : 61] أي : وُجِدوا { أُخِذُواْ . . . } [الأحزاب : 61] أي : أُسِروا { وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً } [الأحزاب : 61] ولاحظ المبالغة في { وَقُتِّلُواْ . . . } [الأحزاب : 61] والتوكيد في { تَقْتِيلاً } [الأحزاب : 61] يعني : اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاءَ ما ارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين .
ولأن المنافق الذي طُبع على النفاق صارت طبيعته مسمونة مُلوّثة لا تصفو أبداً ، فالنفاق في دمه يلازمه أينما ذهب ، ولا بُدَّ أنْ ينتهي أمره إلى الطرد من أي مكان يحل فيه .
لذلك ، فمع أن الله تعالى قطَّعهم في الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم في بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يذوبون في المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفي كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لا بد أنْ يكتشف الناس فضائحهم ، وينتهي الأمر بطردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً في ألمانيا .
وصدق الله حين قال فيهم : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب } [الأعراف : 167] .
ثم يقول الحق سبحانه : { سُنَّةَ الله فِي الذين . . . } .

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

بعد أن بيَّن الحق سبحانه نهاية أعدائه بالتقتيل وانتصار رسوله صلى الله عليه وسلم ، أوضح أن هذا ليس شيئاً جديداً في موكب الرسالات ، إنما هي سنة متُبعة ومتواترة ، وهل رأيتم في موكب الرسالات رسولاً أرسله الله ، ثم خذله أو تخلى عنه ، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه؟
والسنة : هي الطريقة الفِطْرية الطبيعية المتواترة التي لا تتخلَّف أبداً ، فالأمر إذا حدث مرة أو مرتين لا يسمى سُنة ، فالسنة إذن لها رتابة واستدامة .
فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل { فِي الذين خَلَوْاْ . . . } [الأحزاب : 62] يعني : الذين مَضَوْا من الأمم السابقة ، وما زالتْ سنة الله في نصر الحق قائمة ، وستظل إلى قيام الساعة؛ لأنها سنة .
{ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً } [الأحزاب : 62] نعم لا تتبدل ولا تتغير؛ لأنها سنة مَنْ؟ سنة الله ، والله سبحانه ليس له نظير ، وليس له شريك يُبدل عليه ، أو يستدرك على حكمه بشيء .
بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يخبرنا أن المنهج الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه وفيه أوامره ، وفيه نواهيه ، وفيه سبل الخلاص من الخصوم ، هذا المنهج لا بُدَّ أنْ يُحترمَ؛ لأنه

سيُسلم الناس جميعاً إلى حياة أخرى يُستقبلون فيها استقبالاً ، لا ينفعهم فيه إلا أعمالهم .
حياة أخرى يعيشون فيها مع المسبِّب سبحانه ، لا مع الأسباب فإياكم أنْ تظنوا أن الله خلقكم ورزقكم وتنعمتُمْ بنعمه في الدنيا ، وانتهت المسألة ، وأفلت من عقابه مَنْ خرج على منهجه ، لا بل تذكروا دائماً أنكم راجعون إليه ، ولن تُفلتوا من يده .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)

سُئِل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان في الأمر التكليفي؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبني حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .
فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتي مَنْ يسأل عن رأي الإسلام فيها حِرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .
لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . . } [المائدة : 101] .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوني ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .
إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التي تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً في الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن مثل هذه المسائل في قوله تعالى : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .
أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئِل رسول الله : متى الساعة؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها » فأخذه إلى ما ينبغي له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .
وهذه الآية الكريمة { يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة . . . } [الأحزاب : 63] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .
وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو في الحقيقة إيذاء لأنفسهم؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه صلى الله عليه وسلم في أهله وفي نفسه ، فقد تعرَّضوا له صلى الله عليه وسلم بما يتأبَّى عنه أيّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر صلى الله عليه وسلم ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا في أنفسهم وفي أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى – وهو أعلم سبحانه – مَنْ يثبت على الإيمان؛ لذلك قال تعالى : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] .

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب وللمعاني .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجرَوْا مقارنة بين هذا الإيذاء في الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه في الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدي المؤمنين وبأيدي رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذه عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ . . . } [التوبة : 14] .

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلِّيه : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] .

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع في الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشَّره الله بقوله : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

والآخر رَدٌّ أخروي يوم القيامة؛ لذلك قال تعالى : { يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة . . . } [الأحزاب : 63] .

والسؤال الذي سُئِلَه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازي لأنهم كانوا يعملون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرِجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُمِيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعِف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون في أيِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا؟ فأجابهم الله تعالى : { وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً } [الكهف : 25] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة؟ وجهلوا أن تقويت المناسك الإلهية في الدين إنما يقوم على التقويم الهلالي لا على حركة الشمس؛ لأن مُقْتضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها

أول الشهر ولا آخره .
أما التوقيت العربي الهلالي ، فله علامة مميزة هي ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالي والتقويم الميلادي تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوي في السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .
فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادي لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : { وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ . . . } [الأعراف : 142] .
إذن : فقوله تعالى : { وازدادوا تِسْعاً } [الكهف : 25] فيه إعجاز أدائي بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه صلى الله عليه وسلم عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . . } [الكهف : 83] .
فكان ينبغي أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأميُّ الذي لم يجلس مرة إلى مُعلِّم؟
لذلك قلنا : إن الأُمية عَيْبٌ في كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة في رسول الله بالذات؛ لأنها تعني في حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .
كذلك كانت الأمة الت نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف في حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلي ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهي .
إذن : الأمية في العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم في هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوي في مجال التحدي ، فكأن تحدِّى الله العرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .
ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة { يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة . . . } [الأحزاب : 63] وهم يسألون عن الساعة يعني : عن يوم القيامة؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه في الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْكٍ للدماء ، ولَغْو في أعراض الناس .
ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل – لا بنصوص القرآن – لوجدوا أنها أمر منطقي

لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعي في روسيا سنة1917 ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقي أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم؟

بالله ، لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شيء آخر : ألستم تضعون – في أيِّ نظام من أنظمتكم الوضعية – القوانين المنظمة؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس في قوانينكم هذا مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ، وتستحق العقوبة ، فمَنِ استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يداري جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكَثُر ظلمه؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَي عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها .

هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلا فِي . . . } [الأنعام : 59] .

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم في أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحْصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون في ألاَّ يراهم القانون؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِي عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب في هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذي قال : { وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً . . . } [الكهف : 36] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] .

فالتكذيب بيوم القامة هو الأغلب والآكد والشكّ في { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي . . . } [الكهف : 36] يعني : وعلى فرض أَنِيّ رُدِدْتُ إلى ربي يوم القيامة فسوف يكون لي عنده أفضل مما أعطاني في الدنيا ، فكما أكرمني هنا سيكرمني هناك .

وهذا اعتقاط خاطيء وفَهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم في الآخرة إلا مَنْ أكرم نفسه باتباع منهجه في الدنيا ، ومَنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله في الآخرة .

لذلك كثيراً ما نسمع : دَعوْتُ فلم يُستجب لي ، خصوصاً السيدات ، جاءتني إحداهن تشتكي أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنت أقول لها (كتر خيرك) أولاً أنك عرفت أن لك رباً تفزعين إليه وقت الشدة كما قال سبحانه : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . . } [الأنعام : 43] .

إنما أسألك : هل أنت أجبت الله أولاً فيما طلبه منك كي تنتظري منه أنْ يُجيبك إلى ما طلبتِ؟ أأجبت الله في شعرك هذا؟ أأجبتِ الله في (شفايفك) وتغييرك لِخِلْقة الله؟ فكانت لا تجد جواباً ، إلا أنْ تقول : والله أنا قلبي (صافي) ولا أوذي أحداً . . إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعوتُم فلم يَسْتجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سبحانه دعاكم أولاً وناداكم فلم تستجيبوا لندائه ، احرصوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعود إلى ما كنا بصدده من الحديث عن السؤال في القرآن الكريم ، فسؤالهم عن الساعة إمَّا ليتأكد السائل أنها ستحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً في كتاب الله؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جملةً واحدة ، إنما نزل مُنجَّماً حَسْب الأحداث ليعطيهم الفرصة للسؤال ، وجاء السؤال إما لتحدي رسول الله ، وإما للاستزادة من أحكام الله التي أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا جاء مِمَّنْ عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التي كانت لها جذور في الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يَبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى . . . } [البقرة : 222] فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سُئِل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبَلِّغ عن الله ، والله هو الذي يقول ، فقال { قُلْ هُوَ أَذًى . . . } [البقرة : 222] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هي .

لذلك نعجب ممن ينادي بحذف كلمة { قلْ } من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى في حين أنها دليل على صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليل على أن ما جاء به لس

من عنده إنما من عند الله وهو مبلغ فحسب فربهُ قال له قل وهو يقولها كما هي { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو . . } [البقرة : 219] وفي موضع آخر : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين . . . } [البقرة : 215] .

لكن قُلْ تأتي مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا؟ هذا مَلْمح إعجازي في أداء القرآن ، لأن الجواب بقُلْ يعني أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . . } [البقرة : 189] .

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعني وجودَ شرطٍ ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث في المستقبل ، كما في قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105] .

والمعنى : إن سألوك في المستقبل عن الجبال فقُلْ ينفسها ربي نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسْبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها في قوله تعالى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [المسد : 1-5] .

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صِدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ كفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذي حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهي إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء في مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفي آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة (قُلْ) ولا (فقل) ، وهي قوله سبحانه : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . . } [البقرة : 186] ، لماذا؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التي سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها في هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التي تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر

من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقَّاقة بالماء ، وهي عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرة قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حرّكتْ عقارب الساعة بالتساوي ، وسُمّيت ساعة بالذات؛ لأن الساعة هي أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكَّروا في آلة تضبطه؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّي في وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشرة منهم ، حين سَمَّي القيامة (الساعة) فالساعة التي تنتظرونها هي آلة مواقيتكم في الحركة؛ لذلك قال شوقي رحمه الله :

دَقَّاتُ قَلْبِ المْرءِ قَائِلةٌ لَهُ ... إنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقُ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . . } [الروم : 55] أي القيامة : { يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . } [الروم : 55] أي ساعتكم وآلتكم التي تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التي هي جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : { يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة . . } [الأحزاب : 63] يعني : أتوجد أم لا توجد؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأعراف : 70] .

الحق سبحانه تكلَّم في السؤال عن الساعة في موضعين : هنا { يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً } [الأحزاب : 63] .

وفي سورة الشورى : { الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ } [الشورى : 17] .

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب .

وقال اللغويون : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوي فيه المذكَّر والمؤنث ، كما في قوله سبحانه : { وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم : 4] .

ثم في الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : { تَكُونُ قَرِيباً } [الأحزاب : 63] وفي الأخرى قال : (قريب) لماذا؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شيء تابع لأصل الوجود ، وفي الدراسات النحوية نُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهي فعل مَاضٍ ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتي كان تامة تكتفي بفاعلها كما في { وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ . . . } [البقرة : 280] يعني : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهي تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهي ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شيء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هي كان الناقصة؛ لأن الفعل ينبغي أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد . . في الزمن الماضي .

كذلك نقول في الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شيء معه » هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : { وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [النساء : 152] .

فالحق سبحانه في هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة : { لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً } [الأحزاب : 63] ومرة { لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ } [الشورى : 17] .

كلمة { وَمَا يُدْرِيكَ . . . } [الشورى : 17] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلاني ، يعني : علمتَ به .